مكانة الأباضية في الحضارة الإسلامية

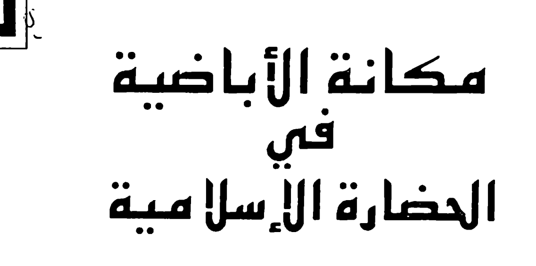
الحلقة الاولى

اعداد

د. محمد صالح ناصر

الطبعة الاولى

١٤١٣هـ-١٩٩٢م



مكانة الأباضية في الحضارة الإسلامية

الحلقة الاولى

اعداد
د. محمد صالح ناصر

الطبعة الاولى
١٤١٣هـ-١٩٩٢م

المصادر والمراجع

* **الدكتور إبراهيم عبدالعزيز بدوي** ، دور المدرسة الإباضية في الفقه والحضارة الإسلامية . ندوة الفقه الإسلامي ، عمان ، إبرايل ، 1988 .
* **الدكتور أبو القاسم سعد الله** ، حقل في ميزاب ، جريدة الشعب ، ع (1990/6/7) .
* **الشيخ أحمد توفيق المدني** مدخل لدراسة الدولة الرستمية ، ملتقى الفكر الإسلامي وراجلان ، 1977 .
* **الشهيد سيد قطب** ، أدب الخوارج وفلسفة الخروج ، الشهاب (المصرية ع ، 15 (1948) .
* **الدكتور شكري فيصل** ، هموم المسلمين ، رسالة إلى الشيخ بيوض ، مخطوطة من مكتبة محمد ناصر ، (1869) .
* **الشيخ عزالدين التنوخي** ، مسند الإمام الربيع بن حبيب ، (مقدمة) عمان ، (د . ت)
* **الشيخ سيد عبد الحافظ عبد ربه** ، الاباضية مذهب وسلوك ، القاهرة ، 1985 .

* **الشيخ علي يحي معمر** ، الاباضية بين الفرق الإسلامية ، غرداية ، 1987 .
* **الاستاذ عبد العزيز المجذوب** ، الصراع المذهبي بافريقيا ، تونس ، 1975 .
* **الدكتور عوض محمد خليفات** ، الأصول التاريخية للفرقة الإباضية ، (عمان) دت .
* **الدكتور عمربا** ، دراسة في الفكر الإباضي . عمان ، 1986 .
* **الأستاذ مالك بن بني** ، في ضيافة ميزاب الثورة الافريقية ، الجزائر ، 1968 . ترجمة ، محمد ناصر ،
* **الدكتور فهمي هويدي** ، أزمة الوعي الديني ، اليمن ، 1989 .
* **الدكتور محمد ناصر** ، خطاب مفتوح إلى وزير الشؤون الدينية أضواء ، ع ، 1989/6/1 . الاباضيـة ، المذهب ، والتصور والواقع ، السلام ، ع ، (19 - 1990/12/26) .
* **الشيخ احمد بن حمد الخليلي** ، الحق الدامغ .

فهـرس الكتاب

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقــدمـة

وراء هذا الكتاب الذي أود أن يفتح القارىء المسلم له قلبه دوافع ذاتية وأخرى موضوعية لعل أقوالهاهذا الود العميق الذي يملأ جوانحي لإخوة الإيمان أينما كانوا وحيثما وجدوا ، فليس أعز علي من محبة خالصة لله تربطني بأخ في الله رباط تعاون وبر وتقوى وليس رباط منفعة دنيوية أو مصالح آنية . لا تسجنها الحدود الاقليمية عند حيز جهوي أو قطري ، ولا يكبت جذوتها انتماء لمذهب أو قبيلة . هذه أولها .

أما ثانيها فهي مشاعر الألم والاحباط التي ايقظتها في أعماق نفسي تلك الحوادث الأليمة التي شهدتها منطقة وادي ميزاب في هذه السنين الأخيرة (حوادث غرداية 1985 ، حوادث الفرارة 1989 ، حوادث بريان 1990) هذه الحوادث المفجعة التي أمسك فيها الجهل ، والتعصب ، والتحزب زمام الأمور فساق الإخوة المسلمين الى التصارع مما أدى بأحد الأطراف إلى استحلال الدم ، والمال ، والعرض وهي أغلى ما يوصي الإسلام بقدسيته .

لقد رأيت بعيني في تلك الظروف المؤلمة كيف يعمي التعصب الأبصار والبصائر وكيف يدفع الجهل إلى التعدي على الحرمات في وضح النهار ، لا لشيء إلا استجابة لنزعة عرقية أو طائفية أو

مذهبية ، وما إلى ذلك من نوازع الشيطان التي نهانا ديننا الحنيف أن ننقاد لهواها ، ونتصرف وفق رضاها .

ولقد آلمني أشد الألم ما قرأته في بيان منسوب إلى أعيان المالكية بمدينة بريان (إن صدقا وإن كذباً)* فقد تحسست في ذلك البيان ادران عصور الانحطاط والتخلف مترسبة في أعماق بعض النفوس المريضة التي لم يستطع الدين الإسلامي أن يزيل غشاوتها .

فإن الذي يذهل المرء حقاً ، ولايكاد يصدقه عاقل ونحن في فورة الصحوة الاسلامية وضحاها أن ينحدر مستوى الوعي الديني والوطني إلى هذه الدركة التي تبيح لبعض النفوس حمل السلاح في وجه أخ مسلم تحت شعار «الجهاد في سبيل الله» فأي جهاد هذا الذي يرضي الله بقتل الأبرياء ، ونهب أموالهم وممتلكاتهم ، وأية محنة هذه التي تطحن المسلمين حتى باتوا لا يفرقون بين الألفاظ ومعانيها ، وبين الشعارات ومقاصدها ؟

أيمكن أن نساوي بين مقعد في البلدّية أو في الولاية ، وبين قطرة دم واحدة لنفس مسلمة ؟

ومما لا شك فيه أن المتصرّف على هذا النحو السافر الكافر يضاد دعوة الله في كتابه الكريم حيث يقول ﴿ **إنما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون** ﴾ .

لقد نظرت إلى كل ذلك من خلال الدموع ، وتفكرت في أبعاد تلك الفتن والحسرة تملأ القلب ، لأني أدركت كما لم أدرك من قبل

(*) بنظر مجلة الوحدة (الجزائرية) العددان : 476 . 749 . (1990)

إلى أي حد ـــ نحن المسلمين ـــ بعيدون عن تعاليم ديننا الحنيف ، متناقضون بين ما نتلوه في صلواتنا صباح مساء وما نقترفه بأيدينا قبل ذلك وبعده .

وتيقنت كما لم أتيقن من قبل إلى حد أصبحت فيه الأمة الاسلامية كالريشة في مهب الريح العاصف تتطاوح بها الأهواء الداخلية والخارجية ، وتستبد بها شهوات الدنيا لتبددها يميناً ويساراً .

إن الذي حدث أو يحدث في وادي ميزاب جزء لا يتجزأ مما حدث أو يحدث في لبنان وإيران أو مصر والسودان ، بل هو جزء لا يتجزأ عما يحدث في العراق والخليج .

إن الناظر في تحولات العالم الاسلامي في إطار الصحوة الاسلامية الأخيرة يدرك بأن الصحوة لن تؤتي ثمارها إلا باصلاح ذات البين بين المسلمين الذين يكوِّنون هذا المجتمع الاسلامي المتلاطم العريض وكل مشروع حضاري نهايته الخيبة والفشل ما لم يبن أسسه على التسامح والود والمحبة بين أفراده ، ولن يصل غايته إن لم يمهد لطريقه وخطواته بالاحترام المتبادل والتقدير الكامل بين طوائفه وأحزابه ، مادام الهدف واحداً وهو بناء مجتمع إسلامي متطور في ظل راية التوحيد .

ولعل الواقع المرير الذي نشهد ماسيه من حين إلى آخر هنا وهناك يعود إلى أسباب سياسية ودينية في الأغلب الأعم ، لقصور نظر لدى الساسة والمتزعمين وذلك ما جعل أحد الكتاب الاسلاميين يقول وله الحق «إن السؤال الذي ينبغي أن يشغل به المصلحون والمخلصون هو : كيف يمكن أن توظف القيم الدينية لتكون ركائز

للتقدم ، والنهضة ، والتحرر ، لا أن تصبح سببًا إلى تكريس التخلف ، والتحجر ، والتقهقر فإنه عوض أن يتصارع المسلمون بدافع مذهبي أو حزبي كان الأولى بهم أن يوجهوا قواتهم الى عدوهم المشترك عدو دينهم وأمتهم . وقرآنهم ونبيهم . فإن المعركة الحقيقية شئنا أم أبينا ، أدركنا ذلك أم لم ندركه ينبغي الا تكون بين المسلمين مذاهب واحزابا ، وإنما هي صراع حضاري بين كفر وإيمان ، وتنافس محموم على السيادة والسيطرة يبين حضارة الهلال وحضارة الصليب ، حتى وإن حاول اعداء الإسلام داخلا وخارجاً أن يَطْبَعُوا هذا الصراع بغير هذا الطابع ، وأن اتخذوا أساليب تكتيكيَّة سياسية واقتصادية أخرى . فإن لم يدرك المسلمون هذا الواقع ولم يستبطنوا خفاياه فإنهم ما يزالون في توجيه اسلحتهم الفتاكة ضد بعضهم البعض متغافلين عن عدوهم الأساسي الذي يدس السلاح في أيديهم ، ويؤلب الحكّام الفجرة عليهم ، ليتحكموا في منابع الثروات المادية والأدبية ، ويخذلوا قواهم الاقتصادية والروحية .

إنهم يتسمُون للمسلمين في ود كاذب ، وتملق منافق ليوجهوا وجوهنا قبل البيت الأبيض ، والساحة الحمراء وليصرفوا وجوهنا عن الكعبة ، والقبة الخضراء ، وأولى القبلتين ، وليس أدل من هذه المؤامرة التي تجلت واضحة وضوح شمس الهاجرة في سماء الجزيرة العربية ، فيما يطلقون عليه اليوم (أزمة الخليج) وإن أخوف ما نخافه أن ننفطن إلى عدونا الحقيقي ونحن نردد في حسرة وندامة «إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض» فإن نفسا مسلمة واحدة تموت في ساحة المسجد الأقصى ، أو في رمال الجزيرة ، أو في واحات غرداية ، أو

على شاطىء النيل . هي خسارة عظمى للمسلمين جميعهم .

* * *

لقد كان هذا الواقع المرير إذا حافزاً قوياً دفعني إلى الإسراع بإيجاز هذا الكتاب الذي ليس لي فيه جهد سوى الاعداد والجمع والترتيب ، وإني لآمل أن يُسهم في تصحيح بعض الأفكار الشاذة التي ما فتئت تطالعنا بها الصحف أو الكتب هنا وهناك . وإن أغلبها جهل فاضح بمبادىء التاريخ الاسلامي . أو هي اتهامات باطلة لغرض دنيوي أو لنزوة جاهلية .

ولكوني أحد المتمذهبين بالمذهب الإباضي فإني حريص دوما على متابعة تلك الكتابات صحيحها وفاسدها ، صوابها وخطئها . وقد تبين لي أن السبب الأكبر في نشر المزاعم الباطلة في حق (الإباضية) إنما هم كتاب الفرق الاسلامية القدامى من امثال البغدادي والشهر ستاني ، وابن حزم . وحتى الا شعري لم يسلم من بعض ذلك .

وإلى جانب أولئك نجد بعض الفقهاء المتعصبين من غير الاباضية أو من الاباضية أنفسهم ، فقد ساعد بعض الفقهاء من أصحاب النظر القاصر الذاهلين عن واقع الأمة الاسلامية وما تستدعيهم مشاكلها من تريث وبعد نظر عن الإنسياق وراء بعض الخلافات الفقهية التي ليست بذات بال لأنها فروع وليست أصولا كما سيقف عليها القارىء الكريم بنفسه من خلال فصول هذا الكتاب .

وما أشبه أولئك الفقهاء بالأمس ببعض الدعاة المتطرفين اليوم الذين يتخذون المنابر منابز يدفعهم إلى ذلك غرور وسذاجة فأساؤوا

إلى هذه الأمة من حيث يظنون أنهم يحسنون صنعاً ، وافتوا عن جهل وهم لما يميزوا بين أصول الدين وأصول الفقة . وحشروا أنوفهم في قضايا وجزئيات تاريخية دقيقة كحد السيف وهم في غنية عن إثارتها والتنقيب عنها ، وكان الأولى بهم أن يتأسوا بالائمة المهتدين الذين قال ورعهم «تلك دماء طهر الله منها أيدينا فلنطهر منها ألسنتنا ، وكان ايلأجدر بهم أن يستحضروا في وعظهم الآية الكريمة ﴿ **تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ولا تسألون عما كانوا يعملون** ﴾ ، وكان من الحكمة وبعد النظر أن يسارعوا إلى ضم الشمل ، وجمع الشتات بالتحاور العلمي الهادىء ورفع كل ذلك إلى مجالس الخاصة من العلماء المتخصصين ، ولا ينزلوا بقضايا الخلاف إلى أوساط العامة والمبتدئين .

على أن هذا الواقع المؤلم لا يجعلنا نرتاب لحظة واحدة في أصالة هذه الأمة وخيريتها لأن الذي حكم في ذلك كتاب لا يأتيه الباطل من بين يدية ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وأن سلوك بعض المسلمين لا يمكن أن يشككنا في مبادىء الاسلام السامية مهما كان سلوك بعضهم قاسياً[2] ، وأن على المسلمين ألا ييأسوا من إصلاح ذات البين وتجاوز الخلافات والصراعات بكل الوسائل الممكنة المادية والأدبية ، الفردية والجماعية ، وأن العمل في هذا الصدد لن ينجح ما لم يكن عملاً متواصلاً على جميع المستويات الإسلامّية حكاماً ومحكومين ، دعاة ومدعوّين ، وإن مجالاته تتوسع إلى كل الميادين السياسية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والاجتماعية .

---

(2) وأن لا يدفع شبابنا إلى الارتماء في أحضان الاحزاب اللادينية .

إن العمل الاسلامي في هذا المجال ينبغي أن يكون استراتيجية واسعة تبدأ من الناشئة الاسلامية في المدارس وتتطور معهم في الثانويات والجامعات ، وتتوسع لتشمل كل مجالات الإعلام المرئية والمسموعة بكل وسائلها وبشتى طرقها .. الكاسيت الفيديو .. الصور .. كتاب الجيب .. وغير ذلك .

ويتعاون في هذا كل المسلمين الصادقين ، وإن دور علماء الإباضية لا يقل مسؤولية عن غيرهم إن لم يفقه ، لأن الحقيقة يكشفها أصحابها . ورب الدار أدرى بغرفة وردهاته ، فقد أثبتت التجربة التي قام بها المرحوم الشيخ علي يحي معمر (الليبي ت : 1980) نجاحها ، وقدمت ثمارها . إذ ما تزال كتبه القيمة مصادر أساسية للباحثين المنصفين ، وقد كان لها الفضل في إعانة بعض البحوث الاكاديمية الموضوعية في جامعات الشرق والغرب . وبددت الأوهام ، وأنارت الأفهام .

إن الطريقة التي سلكها الشيخ علي يحي معمر منذ بداية السبعينيات بكتبه القيمة وهي : الإباضية في موكب التاريخ بأجزائه ، الإباضية بين الفرق الاسلامية ، سمر أسرة مسلمة ، مسلم ولكنه يحلق ويدخن !! .. هذه الكتب فتحت في مجال التعارف الاسلامي بابا واسعا وقرَّبت الشقة التي كانت متوَهَّمة بين الإباضية وغيرهم من المذاهب الاسلامية الأخرى . وبددت كثيرا من المعلومات الخاطئة التي كانت عالقة بهم . وقد لمسنا أثر ذلك عملياً في كثير من المؤلفات المعاصرة المعنية بالفقه ، والعقيدة ، والتاريخ .

وما من شك في أن جهود الشيخ علي يحي معمر واخلاصه وإيمانه كان وراء كل هذا النجاح الذي نسأل الله أن يؤجره عليه .

فقد كان الشيخ مفتونا بحب اخوانه المسلمين أينما كانوا من أرض الاسلام ، داعياً دوما إلى التضامن والتراحم . مطبقاً مبادئه الثلاثة المعروفة وهي : المعرفة ، التعارف ، الاعتراف .

وإذا كانت تلك هي جهود الشيخ علي يحي معمر في المغرب الاسلامي ، فإن جهوداً عظيمة أخرى ما فتئت تؤتي ثمارها الخيرة في المشرق الاسلامي والخليج بفضل إخلاص الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عُمان» فقد دأب الشيخ منذ سنوات على العمل في هذا الاتجاه بالدروس ، وبالمحاضرات ، وبالمؤلفات ، عن طريق الكاسيت ، والفيديو ، والأحاديث المذاعة . وقد كان من أبرز أعماله سَعْيُه المشكور إلى عقد ندوة الفقه الاسلامي المنعقدة بمسقط في أبريل سنة 1988 ، فقد كانت تلك الندوة أول خطوة ميدانية ثابتة في التقريب بين المذاهب الاسلامية ، والتعريف بالفقه الاباضي ودوره في الحضارة الاسلامية ، بعيداً عن التهريج والأضواء ، وفي منأى عن التعصب والتطرف ، لأن الذين حضروا تلك الندوة علماء أعلام متخصصون يشهد لهم بالعلم والايمان والاخلاص ، وفدوا من كل أنحاء العالم الاسلامي .. يحدوهم الشوق إلى احتضان اخوانهم المسلمين ، ومد ايديهم إلى التعاون على البر والتقوى .

وقد فتحت لنا تلك الندوة إلى جانب ما ألقي فيها من بحوث هامة عن الفقه الاسلامي — نافذة واسعة نستنشق منها هواء الحوار العلمي الهاديء ، وبسطت فراشاً أخوياً وثيراً للتعارف والتحابب من أجل رفع راية التضامن في العالم الاسلامي . وإذا ذكرت جهود علماء الإباضية في هذه السبيل ، فإن الذي ينبغي الا ننساه هو جهود الرواد من العلماء من أمثال الشيخ أبي اليقظان ، (ت 1973)

والشيخ بيوض (ت 1981) والشيخ عبدالرحمن بكلي (ت 1986 ، والشيخ محمد على دبوز (ت 1981) وغيرهم ، وعلى رأس هؤلاء الشيخ أبو اسحاق ابراهيم اطفيش (ت 1965&) الذي كان نفيه إلى القاهرة من قبل الاستعمار الفرنسي سنة 1923خيرا وبركة للإسلام والمسلمين ، فقد صمد الشيخ في هذه الواجهة صمود الأبطال ، فشارك في المؤتمرات الاسلامية بالقاهرة وخارجها ونشر المؤلفات التي تعرف بالتاريخ والفقه الاباضيين ، وساهم مساهمة فعَّالة في الجمعيات الخيرية الاسلامية ، وشارك في تأسيس بعضها ، ورابط مرابطة صادقة في دار الكتب المصرية مصححا لكتب التراث الإسلامي ، ودار الكتب تعتبر دار إفتاء ثانية ، ومنتدى راقياً يغشاه العلماء والمفكرون والأدباء من كل أنحاء العالم الإسلامي ، ومن هذه الدار عمل الشيخ على التعريف بالمذهب الإباضي وبدد بفضل علمه الواسع بالفرق والمذاهب الإسلامية كثيراً من الأوهام والأباطيل . يحدوه في كل ذلك إيمان صادق إلى توحيد كلمة المسلمين .

* * *

إن هذا الكتاب الذي نضعه بين يدي القاريء المسلم اليوم ما هو إلا جهد بسيط نسعى من خلاله إلى اغناء تجربة الحوار والتعارف ، ونبذ الخلاف وتكريس الائتلاف .

ومن ثم فقد تعمدنا ان يضم هذا الكتاب بين دفتيه مقالات وبحوثاً متعددة لكتاب مرموقين متخصصين في الدراسات الاسلامية ، توخَّيْنا اختيارهم من الشرق الاسلامي ومن غربه .. من المتمذهبين بالمذهب ارباضي أو المتذهبين بغيره من المذاهب الاخرى حرصا منا على أن يطلع القاريء المسلم على ما يقرره الاباضية عن

مذهبهم بأنفسهم من جانب ، كما يستنير بالفكر الاسلامي الموضوعي للمتخصصين في التاريخ ، والفقه ، والأوصول ، والحضارة ، من غير الاباضية من جانب آخر ، وحرصنا أيضًا على أن تتنَّوع البحوث والمقالات في مجالات المعرفة المتعددة : عقيدة ، وفقهًا ، وحضارة ومن هنا فقد وقع اختيارنا على البحوث التالية وقد رتبناها حسب اسماء أصحابها ترتيبا ألفبائياً .

1 ـ **الشيخ أبو اسحاق ابراهيم أطفيش (جزائري ، ت 1965)** : «الفرق بين الإباضية والخوارج» وهو بحث قيم يُوضِّح فيه الشيخ أهم الفوارق العقيدية ، والتاريخية ، والفقهيه التي تميز الإباضية عن الخوارج ، ويدحض بالحجج القاطعة بعض الأخطاء التي وقعت فيها بعض الكتابات القديمة . وقد سبق نشر هذا البحث في بعض الكتب المعينة بتاريخ الفرق الاسلامية ، وحرصنا على نشره هنا لعلاقته الوطيدة بموضوع الكتاب .

2 ـ **الدكتور ابراهيم عبد العزيز بدوي : (مصري)** : «دور المدرسة الإباضية في الفقه والحضارة الاسلامية» وهو بحث قيم يتسم بالموضوعية والتحليل لعالم جليل متخصص في مادة الفقه المقارن ، وكان الأستاذ الباحث قد شارك به في ندوة الفقه الاسلامي المنعقدة بمسقط في أبريل من سنة 1988 . وهو دراسة منصفة لفت فيها نظر العلماء إلى بعض القضايا التي تميز الفكر الإباضي عن غيره في ميدان الفقه الإسلامي ولا بد أن نشير إلى أننا لم ننشر البحث بكامله لطوله ..

3 ـ **الدكتور أبو القاسم سعد الله (جزائري)** «حفل في ميزاب»

وهذا المقال هو في الأصل انطباعات سجل فيها الدكتور سعد الله ملاحظاته عن حفل تأبيني حضره فأوضح ما لاحظه في المجتمع الميزابي من تضامن ، وأصالة ، وغيرة على لغة القرآن الكريم . ونظراً لعلاقة ملاحظات الدكتور وانطباعاته بالاباضية في ميزاب ، رأينا نشره هنا ، خصوصا وأنه يعالج فيه قضية من أهم قضايا الساعة وهي مكانة اللغة العربية في المجتمع الميزابي .. وتجدر الإشارة إلى أن المقال سبق أن نشر في جريدة الشعب (الجزائرية) .

4 ـ **الشيخ أحمد توفيق المدني : (جزائري ت 1984)** مدخل لدراسة الدولة الرستمية دراسة قيمة شارك بها الشيخ المدني في ملتقى الفكر الاسلامي الحادي عشر المنعقد بمدينة وارجلان في سنة 1975 . وقد عالج الشيخ بقلمه المتميز وأسلوبه الممتع الأخطاء التي وقع فيها المؤرخون القدامى في حق الدولة الرستمية منطلقين في ذلك من تعصب مذهبي ، وأوضح أنه ليس في المذهب الإباضي ما يدعوهم إلى ذلك لأنه مذهب سني لا يختلف في أصول العقيدة أو الفقهية عن غيره من المذاهب الاسلامية .

وشهادة الشيخ توفيق المدني شهادة مؤرخ عاشر الميزابيين الإباضيين عن قرب ، وخبرهم في الشدة والرخاء .

5 ـ **الإمام الشهيد سيد قطب : (مصري ت 1966)** «أدب الخوارج وفلسفة الخروج» يستعرض الشهيد سيد قطب المعروف بإعجابه الشديد بآراء هذه الفرقة ومواقفها الايمانية الثابتة . ويدرس هذا الجانب عندها من خلال أدبها . ويوضح

وجهة نظر الإباضية الذين يعرف منهم الشيخ أطفيش إبراهيم ، حيث يعارضون من يصر على إلحاقهم بالخوارج دون تمييز ، ويوافقهم في وجهة نظرهم هذه . وقد نشر المقال سنة 1948 في جريدة الشهاب المصرية . ونظرًا لطرافته وقيمة معلوماته ، أحببنا نشره في هذا الكتاب حتى يستفيد منه الباحثون عن الحق والحقيقة .

6 ـ **الدكتور شكري فيصل** (سوري ت 1987) «رسالة إلى الشيخ بيوض عن هموم المسلمين» هذا عنوان وضعناه لرسالة قيمة ، تعد وثيقة تاريخية تنشر لأول مرة كنا نحتفظ بها بين أوراقنا منذ أن رافقنا الدكتور المرحوم إلى (الفرارة) ووادي ميزاب في زيارة خاصة سنة (1969) ، والرسالة سجل فيها الدكتور شكري فيصل انطباعاته عما شاهده في هذا المجتمع الاسلامي المتضامن المتماسك . ويرغب في تعميم هذه القيم على البلاد الإسلامية ويعالج جانبا من هموم المسلمين في تلك المرحلة من أواخر الستينيات .

7 ـ **الشيخ عزالدين التنوخي** (سوري) «مسند الإمام الربيع بن حبيب» دراسة علمية قيمة صدَّر بها مسند الربيع بشرح الشيخ عبد الله بن حميد السالمي (العماني) وهي دراسة من متخصص في الحديث وعلومه وقد رغبنا أن ننشرها هنا حتى يطلع القاريء الكريم على مكانة أحد كتب الحديث التي لاتقل أهمية عن الصحاح الست ، والشيخ التنوخي عضو المجلس العلمي بدمشق سبق له أن سجل بيراعه المنصف صفحات مشرقة في التنويه بفضائل مذهب الاستقامة وأهله

حتى قال في متهِّميهم بالزيغ : «كل من يتهم الإباضي بالزيغ والضلال فهو ممن فرقوا دينهم ، وكانوا شيعاً ، ومن الظالمين الجهَّال[3] .»

8 ــ **الشيخ عبد الحافظ عبد ربه (مصري ت 1990) :**

«الاباضية مذهب وسلوك» وهي صفحات نقلناها عن مؤلِّفه القيم بهذا العنوان نفسه ، والشيخ عبد الحافظ من علماء الأزهر الأجلاء المرموقين ، وقد قرأنا في كتابه ذاك انصافًا لم نقرأة لأحد من قبله ، وقد تميز بجرأة في الطرح والتحليل قلّما رأيناهما لأحد غيره ، حتى إنه ليبدو في بعض أفكاره مبالغا في المدح والتزكية . كأن يقول مثلا «والمذهب الإباضي ليس عجيبًا في الدنيا ولا غريبًا عن الحياة ، وإنما هو العملة الصحيحة التي يجب تداولها ، وتناولها ، والتعامل بها في شتى الانحاء ، وفي لاجميع المناخات والأجواء ، وهي بعون الله عملة لا ينالها التزييف أو التلبيس ، ولا يطولها الوضع أو التدليس ولا يجوز في منطقها العمل بين بين ، ولا التنكر في وجهين ، ولا المشي على الحبلين ، فالحق عندها واحد لا يتجزأ ، وكل لا يتوزع[4] » .

9 ــ **الشيخ علي يحي معمر (ليبي ت 1980) :** «مكانة الإباضية بين الفرق الاسلامية .»

وهو عبارة عن فصل أخذناه من الكتاب القيم الموسوم «الإباضية بين الفرق الاسلامية» وهو كتاب يعد اليوم مصدرًا

(3) نقلا عن كتاب : الحق الدامغ ، للشيخ أحمد بن حمد الخليلي ، ص 230 .

(4) نقلا عن كتاب ، الإباضية مذهب وسلوك ص ، 22 .

هامًا لاغناء عنه للباحث المنصف . وقد رأينا نشره هنا لأنه يلخص فيه الشيخ ــ وهو المتخصص القدير في دراسة المذهب الإباضي ــ كثيرًا من القضايا التي يعتبرها هو مفاهيم ينبغي أن تختفي .

10 ـــ **الأستاذ عبد العزيز المجذوب (تونسي)** «الإباضية في الميدان» وهو عنوان فصل قيم اتسم بالموضوعية ، والانصاف ، والبحث المتعمق في النظر إلى الحوادث التاريخية . نشره صاحبه ضمن كتابه الموسوم «الصراع المذهبي بإفريقية» وقد طبع بتونس سنة 1975 وأصله أطروحة تقدم بها صاحبها لنيل درجة الكفاءة في البحث العلمي من كلية الشريعة وأصول الدين بتونس . وقد نشرناه هنا لأنه يغطي فترة من تاريخ الإباضية بالمغرب عرفت بالصراع الحاد بين الفرق والمذاهب ، أوضح الباحث فيها تسامحهم واعتدالهم ، ونزاهة حكمهم ، وسنيّة آرائهم .

11 ـــ **الدكتور عوض محمد خليفات** (أردني) : «الأصول التاريخية للفرقة الإباضية» عنوان بحث قيم لاستاذ مبرز في التاريخ . وصاحب دراسات أكاديمية متعددة ، احببنا نشره لعلاقته الوطيدة بموضوع الكتاب . ولأن صاحبه ذو مكانة مرموقة في الدراسات التاريخية . سبق له أن نشر ابحاثاً تحليلية عن الإباضية في شتى الجوانب الحضارية . ثم لأن هذا البحث لا يعرفه القاريء في الجزائر وإن سبق نشره بعمان مرتين ونظرا لأهميّة هذا البحث رأينا إخراجه في شكل كتيب مستقل ، أيضاً .

12 ــ الدكتور عمر بن الحاج صالح با (سنغالي) «هل الإباضية خوارج» وهذا الفصل نقلناه عن كتاب عنوانه «دراسة في الفكر الإباضي ، والكتاب في الأصل عبارة عن اطروحة جامعية تقدم بها صاحبها السنغالي إلى إحدى جامعات الهند . وقد صدر الكتاب بعمان في سنة 1986 ونظرا إلى أن الكتاب لم يصلنا إلى الجزائر . وقليل هم أولئك الذين أطلعوا عليه من الباحثين المتخصصين رأينا نقل هذا الفصل عنه تعميما للفائدة العلمية .

13 ــ **الأستاذ مالك بن نبي (الجزائري ت** 1973) : «في ضيافة ميزاب» عنوان مقال هام صدر بجريدة «الثورة الافريقية» الجزائرية في سنة 1968 سجل فيها هذا المفكر الاسلامي البارز انطباعاته عن ذلك المجتمع الميزابي الذي رآه عن كثب فرآى فيه وجهًا لحضارة اسلامية صغرى والواقع أن المقال صدر أصلا باللغة الفرنسية وظل كذللك ، ورغبة منا في اطلاع القاريء الكريم الذي لا يمكنه فهم الفرنسية ــ عرَّبناه راجين أن نكون موفقين في ذلكم .

14 ــ **الاستاذ فهمي هويدي (مصري)** «براءة الإباضية» و «خطوتان إلى الأمام» مقالان قيمان لهذا الباحث المعروف باهتماماته الاسلامية وباطلاعه على مسيرة الصحوة الاسلامية عبر العالم الاسلامي . وقد كانت له مشاركة فعالة في ندوة الفقه الاسلامي بعمان ، وهذان المقالان سجَّل فيهما انطباعاته ، واقتراحاته ، حول ما جرى في تلك الندوة الهامة . مستشرفاً آفاق المستقبل الاسلامي بعد هذه التجربة الناجحة .

15 ـــ **الدكتور محمد ناصر (جزائري)** : «رسالة مفتوحة إلى السيد وزير الشؤون الدينية» رسالة مفتوحة وجهها صاحبها إلى السيد وزير الشؤون الدينية الجزائري السابق (بو علام باقي) إثر حديث متلفز تجاهل فيه المذهب الإباضي تجاهلا تاماً ، وهو يتحدث عن المذاهب في الجزائر قديما وحديثا .

وفي الرسالة المفتوحة توضيح لمكانة الإباضية في الحضارة الاسلامية بعامة ، وفي تاريخ الجزائر بخاصة . وقد نشرت الرسالة عندئذ في الصحافة الجزائرية مثل النصر والشعب ، وأضواء . ونعيد نشرها هنا كوثيقة تاريخية ، وإلى هنا نرجو أن يكون هذا الكتاب مساعداً على تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة التي سادت قروناً طويلة ، ويعمل على إزالة الأحكام المُسْبقة والتعصب المذهبي ، إيماناً منا بأنه لا عزة للمسلمين ولا دافع لهم إلى التقدم والرقي ومواجهة تحديات الغرب الصليبي إلاّ في إطار الوحدة الإسلامية ، والتضامن الأخوة المتين ، فإن الوحدة والأخاء هما الدعامتان الأساسيتان اللتان ترفعان هذا البناء الإسلامي الشامخ وتزرعان في أفراده وجماعاته القيم المحمدية الفاضلة ، فإن القيم السائدة في كل مجتمع هي جزء من مشروعه الحضاري ، وفي غيبة هذا المشروع (المتكامل) لا بد أن نتوقع خللاً دائماً في بناء القيم على المستوى العام والخاص .

نسأل الله سداداً في الرأي . وثباتاً في العقيدة .

محمد صالح ناصر

١٩٩٠/١٠/١٨

الحق الدامغ

لسماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي
المفتي العام لسلطنة عمان

..ولست أبالغ إن قلت إن الإباضية ــ أهل الحق والاستقامة ــ تمتاز عقيدتهم ، وتتسم طريقتهم في فهم أصول الدين بثلاثة أمور :

١ ــ سلامة المنزع .
٢ ــ عدم التعصب .
٣ ــ المرونة والتسامح .

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله الذي اصطفى لعباده الدين فوحد به بين فئآت المؤمنين ، وألّف بنظامه بين قلوب المخلصين ، سبحانه هو الواحد في ذاته المتقدس في صفاته المتعالى في كبريائه ، الخالق لما في أرضه وسمائه ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[1] ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**﴾[2] الصادق في الوعد والوعيد ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ولا تبديل لكلماته ، ولا إخلاف في ميعاده ، أحمد حمد من آمن بجلاله واعترف بكماله ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ﴿**له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون**﴾[3] وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله وخيرته من خلقه وصفوته من رسله ، أرسله بأصدق البينات وأظهر الآيات وأبهر المعجزات فأكمل به الدين وأتم به النعمة على عباده المؤمنين ، صلّى الله وسلّم تسليماً

---

(1) سورة الشورى (آية 11)

(2) سورة الأنعام (آية 301)

(3) سورة القصص (آية 88)

عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد :

فإن التباين في أحوال الناس سمة من سمات البشر المعهودة ، فلذلك تجدهم متفاوتين في المدارك ، مختلفين في المشارب ، متعاكسين في الأحاسيس ، وإلى ذلك يرجع تعدد مذاهبهم في الأمر الواحد ، وتباين تصوراتهم في القضية الواحدة ﴿ولا يزالون مختلفين إلاَّ من رحم ربك ، ولذلك خلقهم﴾[4] وكثيراً ما تتأصل الحمية في نفوسهم فلا تلبث مع استمرار الوقت وعوامل الزمن أن تتحول إلى عقيدة راسخة متسحكمة ، في العقل والوجدان ، مستعصبة على الحجة والبرهان ، لا تتزعزع لمحرك ، ولا تنقاد لداع .

ولذلك كانت دعوات المرسلين عليهم السلام تستفرغ منهم الجهد الجخيد ، وتستغرق منهم الوقت الطويل ، وتظل مع ذلك أفكار أكثر الناس سادرة في غيها ، غارقة في عماها ، لا تصغى إلى الحجج الصادعة ، ولا تتفتح على المعجزات الساطعة ، بل كلما إزدادت الحجة بياناً ، والمعجزة ظهوراً ، كانوا أشد تصامماً وتعامياً ، وأوغل في العناد والشقاق .

وقد ابتليت كل أمة بالافتراق فيما بينها والانشقاق على نفسها ، ولم تسلم من ذلك أمة حتى أمة محمد ﷺ التي خصت بمبعث أعظم رسول إليها ، وإنزال أجل كتاب عليها ،

---

(4)

وحذرت أيما تحذير من الافتراق ودواعيه ، وبينت لها عاقبة السيئة في محكم آيات الكتاب الذي اختصت به ، قال تعالىٰ **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾**[1] ، وقال سبحانه **﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾**[2] وقال **﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾**[3] وقال لنبيه عليه أفضل الصلاة والسّلام **﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾**[4] فإنها مع ذلك كله لم تسلم من هذا الداء العضال الذي أصاب غيرها من الأمم ، غير أن الله سبحانه اختصها بأن حفظ لها كتابها المنزل من تحريف العابثين وتبديل المناوئين تحقيقاً لوعده الصادق **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**[5] ، ومكن لها من معرفة الصحيح الثابت من سنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وجعل لها مخلصاً من الشقاق والنزاع بالاحتكام إلى الله ورسوله حيث قال **﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾**[6] .

ولا يكون الاحتكام إلى الله إلاَّ بالرجوع إلى كتابه فتستلهم

---

(1)سورة آل عمران (آية103) .

(2)سورة آل عمران (آية 105) .

(3)سورة الأنفال (آية 46) .

(4)سورة الأنعام (آية 159) .

(5)سورة الحجر (آية 9) .

(6)سورة النساء (آية 59) .

منه الحقيقة ويستبان به الحق ، وكذلك الاحتكام إلى رسوله ﷺ لا يعني إلاّ الرجوع إلى سنته الثابتة الصحيحة .

ومع وجود هذا المخلص الذي أمرنا بأن نفزع إليه من كوارث الاختلاف فإن الخلاف لم يزل ، والشقاق لم يستأصل ، فقد تُؤوِّل الكُتاب تأولات شتى لم تستمد إلاّ من الوهم ، ولم تستلهم إلاّ من الهوى ، كما أن للناس مواقف متعددة في معرفة الصحيح من غيره من سنته عليه أفضل الصلاة والسلام ، وفي معرفة نفس مقاصد السنة الثابتة باتفاق الجميع ، ومن هنا نشأ ما نراه بين الأمة من خلاف ونزاع في أُصول الدين وفروعه .

وإن أعظمه ضرراً ، وأفدحه خطراً ، وأعمقه أثراً ، وأسوأه عاقبة ما كان في أُصول الدين ، فإنها قواعد الإسلام ، بها تقوم أركانه ، وعليها يشاد بنيانه ، وبقدر ما تكون قوتها تكون متانة الدين نفسه ، ولأجل ذلك فإن الأمة كثيراً ما تتسامح في الخلاف الذي يكون بين فئاتها في فروع الشريعة ، ولكن يستد شقاقها ، ويتعمق نزاعها عندما تختلف في الأُصول ، وبقدر ما يكون من التقارب أو التباعد فيها بين طائفة وأُخرى يقدر ما بينهما من التلاقي أو الافتراق ، وما مصدر ما حدث ويحدث بين طوائف الأمة من التراشق بالتهم والتنابز بالألقاب ، والترامي بالأحكام القاسية إلاّ الاختلاف في أُصول دينها ، والتباين في منازع استنادها في معتقداتها بين الإفراط والتفريط في التعويل على النقل أو العقل .

وليس هذا النزاع في أُصول الدين مع وحدة المصدر الذي

تنهل منه العقول المتنازعة إلّا نتيجة لتباين المدارك واختلاف التصورات عند أئمة الفرق ، ثم يؤصله تعصب الجماهير لأقوال أئمتهم بحيث تجعل كل طائفة قول إمامها أصلاً تطوع له الأدلة المخالفة له بكل ما تخترعه من التأويلات المتكلفة ، فتوزعت الأمة شيعاً وأحزاباً ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾[1] .

ولست أبالغ إن قلت إن الإباضية ـ أهل الحق والاستقامة ـ تمتاز عقيدتهم وتتسم طريقتهم في فهم أصول الدين بثلاثة قامور :

1ـ سلامة المنزع ، فإنهم جمعوا في الاستدلال على صحة معتقداتهم بين صحيح النقل وصريح العقل ، فلم يضربوا بالنصوص الصحيحة عرض الحائط بمجرد تعارضها مع مقتضيات العقل بادى الرأي كما هو شأن أصحاب المدرسة العقلية الذين جعلوا العقل أسمى وأقدس ، وأصح وأثبت مما جاء به النبيون عن الله عزَّ وجلَّ ، فعولوا عليه في التحسين والتقبيح ، والتعليل والحُكم ، كما أنهم لم يطفئوا شعلة العقل مستأسرين لظواهر الألفاظ غير مسترشدين به في استكشاف أبعاد معانيها ، والغوص على حقائق مراميها ، كما هو شأن عبدة الألفاظ الذين لا يأخذون من النص إلّا قشوره ، لا يتجاوزون شكله إلى جوهره ، ولا يتعدون ظاره إلى مضمونه ، بل استمسكوا بالعرى الوثقى من النصوص ، واتخذوا من العقل

---

(1)سورة المؤمنون (آية 53) .

السليم دليلاً على فهم مقاصدهم ، ومن الأساليب اللغوية شراكاً لاقتناص شواردها ، ولا غرو فهم منطلقون في ذلك من مراشد القرآن نفسه ، فكم تجد فيه ﴿لآيات لقوم يعلقون﴾ و ﴿لقوم يتفكرون﴾ و ﴿لقوم يعلمون﴾ و ﴿لأولى الألباب﴾ كما تجد فيه ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[1] ، فهو وإن سما فوق بلاغة بلغاء العرب والعجم لم يخرج عن كونه عربي اللسان والأسلوب ، وقد يسره الله للذكر بتفهم آياته واستجلاء مقاصده ، واستلهام مراشده .

2ـ عدم التعصب لأئمتهم تعصباً يجعلهم يتصاممون عن النقول الصحيحة ، ويتعامون عن العقول الصريحة ، كما نجد ذلك عند كثير من المتفقهة والمتكلمين ، ومن أبشع ما وجدناه في ذلك قول العلاّمة الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين «ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة ولو وافق قول الصحابة والحديث الصحيح والآية ، فالخارج عن المذاهب الأربعة ضال مضل ، وربما أداه ذلك للكفر ، لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر»[1] .

فقد باين الاباضية هذا المسلك الضيق فقهاً وعقيدة إلى فسيح النظرة الشمولية للأمة ، ولم يسوغوا لأنفسهم أن يرفعوا

---

(1) سورة يوسف (آية 2) .

(1) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ج 3 ص 10 ط دار إحياء التراث بيروت لبنان .

كلام أحد من أئمتهم إلى درجة كلام الله أو كلام رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام وإن بلغ في العلم والورع ما بلغ ، فهذا الإمام نور الدين السالمين رحمه الله يقول في كتاب أصول الدين من جوهر نظامه[2] ؛

وهي أمور تبتنى عليها
صحة ديننا فمل إليها
لا دين للمرء إذا لم يعرف
ما كان منه لازماً فلتعرف
واعتمدن ذلك بالدليل
في حالة الاجمال والتفصيل

إلى أن قال :

ولا تناظر بكتاب اللّه
ولا كلام المصطفى الأواه
معناه لا تجعل له نظيرا
ولو يكون عالماً خبيراً

ويقول أيضاً[3] ؛

نقدم الحديث مهما جاء
على قياسنا ولا مراء

---

(2)جوهر النظام ج 1 ص 6 ط 10 .
(3)المرجع السابق ص 22 .

ونرجعن في بيان الحكم عنه إلى إجماع أهل العلم

وستجد أخي القارىء الكريم فيما أقدمه إليك ، وفيما دونه غيري من الاباضية ، ما يدلك دلالة قاطعة على صحة ما ذكرته لك ، من أن أهل الاستقامة «والحمد لله» بريئون من هذا الأصل الذي رضيه الصاوي بأن يكون القاعدة التي يقوم عليها صرح الإسلام ، كما ستجد إن شاء الله أن الصاوي ليس وحيداً في هذا الميدان ، فهناك من مشى على نفس هذا النهج كما يدل على ذلك مسلكه في النقاش ، وستجد ذلك إن شاء الله أثناء مطالعتك لهذه الدراسة التي أقدّمها إليك ، ولا يعني ذلك أن جميع أتباع المذاهب الأربعة منغمسون فيما انغمس فيه الصواي وغيره من حمأة التقليد البغيض ، ورفع أقوال الأئمة إلى مستوى أرفع من مسوى كلام الله ، وكلام رسول الله ﷺ ، وأقوال الصحابة رضوان الله عليهم ، كلا فإن كثيراً منهم تحرروا من ربقة هذا التقليد الأعمى وأنصفوا مخالفيهم في الحكم ، كماع ستجد ذلك أيضاً إن شاء الله في هذه الدراسة[1] .

3 ـ المرونة والتسامح في معاملة سائر فرق الأمة وإن بلغ

---

(1)إن الانصاف يقتضي ذكر رَدّ العلاّمة الفاضل الشيخ /أحمد بن حجر آل بوطامي القاضي الأول بالمحكمة الشرعية بدولة قطر الشقيقة على كلام الصّاوي ، فقد أفرد هذا الرد في كتاب سماه (تنزيه السنة والقرآن كونهما م صدر الضلال والكفران) وقد وضع في هذا الرد المفصل على المفصل . .

الخلاف بينهم وبينهم ما بلغ ، إذ لم يتجرأوا قط على إخراج أحد من الملة وقطع صلته بهذه الأمة ما دام يدين بالشهادتين ولا ينكر شيئاً مما علم من الدين بالضرورة بغير تأويل ، أما من استند إلى التأويل ـ وإن كان أوهى من نسج العنكبوت ـ فحسبه تأويله واقياً لَـهُ من الحكم عليه عندهم بالخروج عن حظيرة الأمة ، وخلع ربقة الملّة عن عنقه ، ومن هذا المنطلق صدر ذلك الاعلان المنصف ـ الذي رسم مبدأ الاباضية في نظرتهم إلى الأمة ـ من أشهر قائد إباضي وهو/أبو حمزة المختار بن عوف السليمي ، في خطبته التي ألقاها على منبر رسول الله ﷺ ، فأصاخ لها الدهر ، وسجلها الزمن ، وخلدها التأريخ ، إذا قال فيها رحمه الله : «الناس منا ونحن منهم إلاَّ ثلاثة : مشركاً بالله عابد وثن ، أو كافراً من أهل كتاب ، أو إماماً جائراً»[2] .

وقد مشى الإباضية في هذا ا لنهج السليم ، والتزموا هذا المبدأ القويم في معاملتهم لسائر طوائف الأمة كما يشهد بذلك التأريخ ، ونجد هذه النبرة المنصفة تتردد في أصوات قادة الفكر منهم في الخلف كما كانت من قبل عند السلف ، فهذا الإمام نور الدين السالمي رحمة الله تعالىٰ يحدد لنا موقف الاباضية من سائر الأمة بقوله[1] .

---

(2)أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ج 20 ص 104 ط . بولاق .

(1)كشف الحقيقة مع أنوار العقول ص 25 . المطابع العالمية ، سلطنة عمان .

ونحن لا نطالب العبادا
فوق شهادتيهم اعتقادا
فمن أتى بالجملتين قلنا
إخواننا وبالحقوق قمنا
إلا إذا ما نقضوا المقالا
واعتقدوا في دينهم ضلالا
قمنا نبيّن الصواب لهم
ونحسبن ذلك من حقهم
فما رأيته من التحرير
في كتب التوحيد والتقرير
ردّ مسائل وحل شبه
جاء بها من ضل للمنتبه
قمنا نردها ونبدي الحقا
بجهدنا كي لا يضل الخلقا
لو سكتوا عنا سكتنا عنهم
ونكتفي منهم أن يسلموا

وعلى هذه القاعدة بنى الاباضية حكمهم على طوائف الأمة التي زاغت عن الحق وجانبت الحقيقة في معتقداتها ، فكانوا أشد احتياطاً من إخراج أحد منهم من الملّة بسبب معتقده ما دام مبنياً على تأول نص شرعي ، وإن لم يكن لتأويله أساس من الصحة ولا حظ من الصواب ، ومن هنا اشتد إنكار الإمام الاباضي الكبير محبوب بن الرحيل ـ رحمه الله تعالى ـ على

هارون اليماني الذي حكم بشرك المشبهة وخروجهم من الملّة ، وأنشأ محبوب في ذلك رسالتين جامعتين ضمنهما حججه الداحضة لرأي هارون ، وجه إحداهما إلى إباضية عُمان ، وثانيتهما إلى إباضية حضرموت[2] ، وأطبق الرأي الإباضي على تصويبه وتخطئة هارون .

وسئل المحقق الخليلي رضوان الله عليه عن حكم هؤلاء المشبهة هل هم مشركون ؟ فكان من جوابه لسائله :

«إياك ثم إياك أن تعجل بالحكم على أهل القبلة بالإشراك من قبل معرفة بأصوله ، فإنه موضوع الهلاك والإهلاك»[1] .

هذا في حين تجد أتباع الأئمة الأربعة - الذين جعلهم الصاوي مقياساً لمعرفة الحق من الباطل دون الكتاب والسنة - يكفر بعضهم بعضاً في هذه المسألة ، وناهيك بما في «السيف الصقيل في الرد على ابن زفِيل» للعلامة السبكي الشافعي ، و «تبديد الظلام المخيم في نونية ابن القيم» العلامة الكوثري الحنفي ، و «البراهين الساطعة في رد بعض البدع الشائعة»

---

(2)الرسالتان في الجزء الثالث من كتاب سير المسلمين ، ونرجو أن يظهر هذا الجزء قريباً إن شاء الله بعناية وزارة التراث القومي والثقافة التي أصدرت الجزء الأول منه . ومحبوب هذا هو أحد كبار أئمة العلم في أواخر القرن الثاني الهجري . إذ كان واصطة العقد عند الاباضية مشارقتهم ومغاربتهم .

(1)كتاب تمهيد قواعد الإيمان ج 1 ص 224ط وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان .

للعلّامة القضاعي الشافعي ، وأمثالها من الحكم بإخراج هؤلاء المشبهة عن حضيرة الإسلام ، كما أن أحكام المشبهة أيضاً على الآخرين لا تقل صرامة وشدة ، وناهيك بقول العلامة ابن القيم في نونيته :

إن المعطل بالعداوة معلن
والمشركون أخف في الكفران

وما مراده بالتعطيل إلّا رد متشابه الآي والأحاديث إلى محكمها ، حرصاً على التنزيه ، وحملاً لكلام الله وكلام رسوله ﷺ على ما تقتضيه أساليب البلاغة في كلام العرب ، ودفعاً لما عسىٰ أن يتوهم منه من التناقض والاختلاف .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجد المتفقهين على مذهب إمام واحد من هؤلاء الأئمة الأربعة يشرك بعضهم بعضاً في هذه المسألة أو في غيرها ، فهذا الفخر الرازي يسمى كتاب محمد بن إسحاق بن خزيمة ـ الذي أسماه كتاب التوحيد ـ كتاب الشرك[2] وهما شافعيان فقهاً ، وسوف تقف إن شاء الله في المبحث الثالث من هذا الكتاب على نقول حرفية من كلام ابن تيمية في اختلاف الحنابلة في ألفاظ القرآن وحروفه وأصواته ، وتكفير بعضهم بعضاً في ذلك ، ولا أريد أن أطيل في ضرب الأمثلة وتعديد الشواهد في هذا ، فإنني لم أرد بما ذكرته التشهير بأحد ، وإنما هو أمر اقتضته المقارنة بين احتياط الإباضية في

---

(2)مفاتيح الغيب ، ج 27 ، 150 ط 2 ـ طهران .

الحكم وحذرهم من الاندفاع ، وبين تسرع بعض علماء الأمة الآخرين في إصدار مثل هذه الأحكام التي لا تؤول إلا إلى صدع جدار الأمة وتمزيق شملها ، وهو أمر يستدعي أسف اللبيب وحسرته ، كيف تنزل هذه الأمة إلى ميدان الشقاق والنزاع بينها ، متجاهلة ما فرض الله عليها من الوحدة والوئام ، والألفة والانسجام ، ألم يأمرها الله بذلك في محكم كتابه بقوله : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾[1] ؟ ! ألم يحذرها من عاقبة التفرق بقوله ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾[2] ؟ ! ألم يبعث فيها نبياً كريماً ، ورسولاً أميناً يدعو إلى الوحدة دعوته إلى التوحيد فضرب فيها أروع الأمثال بصهر كل ما كان من قبل بين قومه من خلاف ونزاع في بوتقة الإيمان ، فآخى بالإيمان بين الفئات المتناحرة ، وألّف بالإسلام بين القلوب المتنافرة ، وبيَّن أن هذه الوحدة هي وحدة عقيدة وعمل ، ومبدأ وغاية ، وأمل وألم ، وصور ذلك أبدع تصوير عندما قال : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) وقال : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا إشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر) .

---

(1)سورة آل عمران (آية 103) .

(2)سورة الأنفال (آية 46) .

أليست هذه الوحدة الإيمانية التي نادى بها رسول الله ﷺ ورفع لواءها بين أصحابه رضي الله عنهم وهي التي رفعت من شأن هذه الأمة فأبدلها الله بذلها عزاً ، وبضعفها قوة ، وبضعتها رفعة ، فتمكنت من فتح الدنيا مع قلّة عددها وعدتها ، وكثرة خصومها ، ووفرة العُدَدِ عندهم ؟ .

أو ليس ما بليت به من الشقاق هو الذي عكس عليها ما نشهده من آثار سلبية في أوضاعها ، فتشتتت بعد الوحدة ، وذلت بعد العزة ، وضعفت بعد القوة ، فازدرتها الأعين التي كانت تكبرها ، وطمعت فيها الأمم التي كانت لا تصطلي بنارها ؟ ليت شعري ! ألا صحوة بعد هذه السكرة ، ويقظة بعد هذه النومة التي غرقت فيها عقول هذه الأمة وفي مقدمتها علماؤها الذين ائتمنهم الله دينه وأخذ عليهم العهد أن يأخذوا بأيدي أمتهم إلى سبيل الرشد .

يا ساسة الدين علام وهنكم
وأنتم في عدة وعدّ ؟
تختلفون الرأي فيما بينكم
والحال إخفاق ونقض عهد
وخَلفكم من يستغل خُلفكم
في وثبة السمع وسمع الخلد
يخالكم كالشاء في مسرحها
فإن دعاها رئمت لولد

هلم في صدق العزوم إنها
سلاح كل أُمة وفرد
يا للضلال أن نضل قصدنا
كسادة النادي وشيخ نجد
نرتع في غيبوبة من أمل
ونرتضي من العلى بالوهد
نحس بالآلام في أنفسنا
لكنها مني عليَّ وحدي
ونغمد السيف عن الخصم ولا
نقره عن دمنا في غمد
أهكذا قالت لنا عقولنا ؟
أم أنها قد أخطأت عن قصد ؟
أم أنها ليست لها بصيرة ؟
أم أنها بصيرة لا تجدي ؟
يا حالة قد أفقدتني عصبي
رميت فيمن كنته بالفقد
مولاي عبد تاه في مرامه ،
عن نهجه وأنت مولى العبد
فخذ بضبعه وأُمة هوت
تحت الخلافات وبثق السد
مستفتحين بأياديك الغنى
والعز والنصر وكل جَدٍّ

فاجمع شتاتنا وأصلح شأننا
واقض لنا على ظلوم نـد[1]

ولعله مما يفاجىء كثيراً من القراء أن يطلعوا لأوّل مرّة على عناية قادة الفكر من الإباضية بلم شعث هذه الأمة وجمع شتاتها بعدما أثخنتها الخلافات المذهبية ، ومزقتها النزعات العصبية ، وكم تمنوا أن يحس سائر أعلام الأمة بمثل أحاسيسهم ، ويشاركوهم في هذه الهموم التي تنوء بها صدورهم ، وتؤرق ليلهم ، وتقض مضجعهم ، وقد كانت منهم محاولات للخطو في هذا الطريق والاستعداد لهذه المهمة بنفقات مالية يرصدونها من جيوبهم وجيوب المخلصين من سائر أبناء الأمة ، وأصدق مثال على ذلك ما يجده القارىء في هذا السؤال الذي صدر من عالم مفكر وقائد محنك ، ذلكم هو الشيخ سليمان بن عبد الله بن يحيىٰ الباروني ، عضو مجلس المبعوثان بالدولة العثمانية ، المشهور بسليمان باشا الباروني ، وهو من إباضية جبل نفوسة بالقطر الليبي ، وقد توجه بسؤاله هذا إلى عالم الإباضية بالمشرق ، ومرجعهم في أمور الدين ، الإمام عبد الله بن حميد السالمي ، ونص السؤال :

«هل توافقون على أن من أقوى أسباب اختلاف المسلمين تعدد المذاهب وتباينها ؟ على فرض عدم الموافقة على ذلك فما هو الأمر والآخر الموجب للتفرق ؟ على فرض الموافقة فهل

---

[1] من قصيدة لشاعر عمان الكبير الشيخ عبد الله بن علي الخليلي

يمكن توحيدها بالجمع بين أقوالها المتباينة وإلغاء التعدد في هذا الـزمن الذي نحن فيـه أحوج إلى الاتحـاد من كل شيء ؟ وعلى فـرض عدم إمكـان التوحيـد فمـا الأمـر القـوى المـانـع منـه في نظركم ، وهل لإزالته من وجه ؟ على فرض إمكان التوحيد فـأي طريق يسهل الحصول على النتيجة المطلوبة ؟ وأي بلد يليق فيـه إبـراز هذا الأمـر ؟ وفي كم سنة ينتـج ؟ وكم يلزم لـه من المـال تقريباً ؟ وكيف يكـون ترتيب العمـل فلأه ؟ وعلى كـل حال فمـا الحكم في السّـاعي في هذا الأمـر شـرعـاً وسيـاسـة ؟ مصلح أم مفسدة ؟» . . وكان هذا السؤال في عام ١٣٢٦ هـ .

فكـان من جـواب ذلـك الإمـام لـه : «نعم نـوافق أن منشـأ التشتيت اختلاف المذاهب وتشعب الآراء ، وهـو السبب الأعظم في افتراق الأمة على حسب ما اقتضاه نظركم الواسع .

وللتفـرق أسبـاب أخــرىٰ منهـا ، التحــاسـد والتبــاغض ، والتكالب على الحظوظ العاجلة ، ومنها طلب الرئاسة .

وجمـع الأمة على الفـطرة الإسلاميـة بعـد تشعب الخـلاف ممكن عقلاً مستحيل عادة ، وإذا أراد الله أمراً كان ﴿**لو أنفقت ما في الأرض جميعـاً مـا ألف بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنـه عزيز حكيم**﴾[1] .

والساعي في الجمع مصلح لا محالة ، وأقرب الطرق لـه أن

---

(1) سورة الأنفال (آية 63) .

يدعو الناس إلى ترك الألقاب المذهبية ويحضهم على التسمي بالإسلام ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام﴾[2] ، فإذا أجاب الناس إلى هذه الخصلة العظيمة ذهبت عنهم العصبية المذهبية ولو بعد حين ، فيبقى المرء يلتمس الحق لنفسه ويكون الحق أو لا عند آحاد من الرجال ثم يفشو شيئاً فشيئاً حتى يرجع إلى الفطرة .

وهي دعاية الإسلام التي بعث بها محمد عليه الصلاة والسلام ، وتضمحل البدع شيئاً فشيئاً ، فيصير الناس إخواناً ﴿ومن ضل فإنما يضل عليها﴾[3] ، ولو أجاب الملوك والأمراء إلى ذلك لأسرع الناس في قبولهم ، وكفيتم مؤنة المغرم ، وإن تعذر هذا من الملوك فالأمر عسير والمغبرم كثير .

وأوفق البلاد لهذه الدعوة مهبط الوحي ومتردد الملائكة ، ومقصد الخاص والعام ، وحرم الله الآمن ، لأنه مرجع الكل .

وليس لنا مذهب إلاّ الإسلام ، فمن ثم تجدنا نقبل الحق ممن جاء به وإن كان بغيضاً ، ونرد الباطل على من جاء به وإن كان حبيباً ، ونعرف الرجال بالحق ، فالكبير عندنا من وافقه والصغير من خالفه ، ولم يشرع لنا ابن إباض مذهباً ، وإنما نسبنا إليه لضرورة التمييز حين ذهب كل فريق إلى طريق[1] .

---

(2)سورة آل عمران (آية 19) .

(3)سورة يونس (آية 108) ، سورة الإسراء (آية 15) ، سورة الزمر (آية 41) .

(1)العقد الثمين من أجوبة نور الدين ج 1 ص 126 ؛ 127 الطبعة الأولى .

وهـذا كلام غني عن التعليق بشيء فإنه إن لم يكن شـاهداً عـادلاً ومَعْلَماً واضحـاً على نبل قصـد السـائـل والمجيب وسمـو فكرهما ، وحسن انشودتهما ، فليس يصح في الأذهان شيء .

وإذا كـان الأدب مرآة تعكس مـا في نفس الأديب من كوامن الأحاسيس فإن الأدب الإباضي قديمـه وحديثـه طافـح بعصارات مشاعر الألم الـذي يحسون بـه بسببُ تشتت الأمة وانحـلال عقد نظامها ، وإذا كنت أخي القـارىء شاهـدت صورة من ذلـك فيما نقلتـه لك من قـول أديب معاصـر فـإليـك صـورة أخـرى تعكس مشاعر أديب بارع وعالم جـامع من أدبـاء هذه الـطائفة وعلمـائها الغـابرين ، وهـو العلامـة الكبير شـاعر الإسـلام والمسلمين أبـو مسلم نـاصر ابن سـالم البهلاني الـرواحي الذي طـالمـا إنسـاب يراعه الموهوب ليصـور لنا بعبـاراته الإيمـانية همـومه وأحـاسيسه تجاه أمته ودينه ودونك هذا المقطع من قصيـدة له بعـوان (أفيقوا بني القرآن) :

فـيـا لـبـنـي الـقـرآن أيـن عـقـولـكـم
وقــد عصفت هـذي الـريـاح الـزعــازع ؟
أمـسـلوبـة هــذي الـنـهـي مـن صــدورنـا ؟
وهــل فـقــدت أبصــارنــا والـمـســامـع ؟

* * *

فـليـت بـنـي الإســلام قــرت صــفــاتــهـم
فـمـا زعـزعتـهـا لـلغـرور الـزعـازع

وليتهمُ ساسُوا بنور محمد
ممالكهم إذا باغتتها القواقع
وليتهمُ لم ينحروا بسلاحهم
نحورهم إذا جاش فيها التقاطع
لقد مكن الأعداء منا انخداعنا
وقد لاح آل في المهامة لامع
وسورة بعض فوق بعض وحملة
لزيذ على عمرو وما ثم رادع
وتمزيق هذا الدين كل لمذهب
له شيع فيما ادعاه تشايع
وما الدين ألاَّ واحد والذي نرى
ضلالات أتباع الهوى تتقارع
وما ترك المختار ألف ديانة
ولا جاء في القرآن هذا التنازع
فيا ليت أهل الدين لم يتفرقوا
وليت نظام الدين للكل جامع
لو التزموآ من عزة الدين شرطها
لما اتضعت منها الرعان الفوارع
وما ذبح الإسلام إلاَّ سيوفنا
وقد جعلت في نفسها تتقارع
ولو سلت السيفين يمنى أخوة
لدكت جبال المعتدين المصارع

ومـا صـدعـة الإسـلام من سيف خصمـه
بـأعـظم مـمـا بـيـن أهـليـه واقـع
فـكـم سـيـف بـاغ حـز أوداج ديـنـه
بـأفـظع ممـا سيف ذي الشـرك بـاخـع
هـراشاً على الـدنيا وطيشـا على الهـوى
وذلـك سـم فـيْ الـحـقـيـقـة نـاقـع
ومـا حـرش الأظـغـان في قـلب مسـلم
عـلى مـسـلم إلاَّ مـن الـنـعـي وازع
ولـو نـصـع الـقـلبـان لـم يـتـبـاغـضـا
ولا ضـام مـتـبـوع ولا ضـيـم تـابـع
ومـا هـذه الـدنـيـا لـهـا قـدر قـيـمـة
يـضـاع لـه ذخـر مـن الله نـافـع
ومـا نـال منـهـا طـائـلاً غيـر إثـمـهـا
وأكـدارهـا الـمـسـتـأشـرون الأمـانـع
ولـو بـعـدت في الـنفس مـنـزعـة التـقى
لـمـا نـزعت نـحـو الـشـقـاق الـمـنـازع

* * *

فـمـا بيـعنـا الـحسـنى ومـرضـاة ربـنـا
بـهـا بيـعـة يُمـنـى بـهـا الـربـح بـائـع
عـلى أي شيء يـقـتـل الـبـعض بـعـضـنـا
وتـذكـى فـظاظـات النفـوس المـطامـع

* * *

ولــو أشــربـت منــا الــنفـوس تــبـصــراً

لــمــا كــان مــنــهــا لــلشــرارة نــاقــع

بــلى أشــربــت داء دخــيــلاً أصــارهــا

كــمــا كــمــنــت فــي جــحــرهــن الأقــارع[1]

وقـد كان من بشـائر الخيـر التي لاحت للأمـة مـع تبـاشيـر إشراقة الصحوة الإسلامية المعاصرة ما كان ـ بادىء ذي بدء ـ من التعاطف والتواد والتراحم بين الشباب المسلم الذي أشرقت عليه أنوار هذه الصحوة ، فقد كانوا في بـادىء أمرهم لا يلتفتـون إلى الخلافات المـذهبية ، ولا يشتغلون بـالنعرات الـطائفية إلاّ قليـلاً منهم ، وهم الـذين لم تصقل آثـار تلك الصحوة مـا تـراكم على قلوبهم من الصدأ ، وهؤلاء كانوا مغمورين بـالكفرة الكـاثرة التي ينصب همها في محيط الإسلام الواسع الذي يجمع ولا يفـرق ، ويُـوَحِّد ولا يشتت ، وكـادت القضايـا الخـلافيـة تلقى في زوايـا الإهمـال لتصبـح في خبـر كـان ، حتى إذا نضـرت هـذه الألفـة وكـادت تؤتي ثمـارهـا الـطيبـة هـاجت عليهـا أعـاصيـر العصبيـة العمياء ـ بعدمـا حركتهـا أحقاد غصت بهـا نفوس سـاءتها وحـدة الأمـة ـ فلفحتها بسمـومهـا التي أذبلت نضـارتهـا ، وقضت على رونقهـا ، فإذا بـالتواد تبـاغض ، وبالتعـاطف تباعـد ، وبالتـرابط تقاطع ، والبرحمة عذاب .

وكان أول ضحية لهذا التآمر البغيض هو الإسلام الحنيف ثم

---

(1)ديوان أبي مسلم ص 262 ، 263 ، ط وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عُمان .

الشبيبة المسلمة التي كادت تقلب مجرى التأريخ ، وتعيد إلى حاضر الأمة المشرقة ماضيها العريق بضربها أروع الأمثال في الوحدة الإسلامية والترابط الديني ، فقد انتزعت انتزاعاً من حظيرة الوفاق الإسلامي ليدفع بها إلى متاهات من الخلاف والشقاق كان لها بد وأي بد من الدخول فيها والهيام في أرجائها .

وليت الأمر وقف عند حدود الجدل والمناظرات ، ولم يصل إلى التكفير وإصدار الأحكام التعسفية الجائرة على كثير من المسلمين ، بإخراجهم من الملّة ، وتعريتهم من لباس الإسلام .

وقد لُز الإباضية فيمن لُز إلى مضائق هذه الفتنة على كره منهم ، فقد كانوا في مقدمة المستبشرين بطلائع الوحدة الإيمانية بين الأمة ، المرتاحين إلى روح الأخاء التي كانت تسود الشباب المسلم على اختلاف فئاته ، فما شعروا إلا ويُكفأ على رؤوسهم وقود هذه الفتنة وتضرم عليهم نيرانها بما صدر فيهم من أحكام التضليل والتبديع والتكفير ، واعتبارهم داء عضالا في جسم الأمة يجب استئصاله ولو ببتر الأعضاء التي أصيبت به ﴿وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾[1] ، إذ لم ينقموا منهم إلاّ تنزيههم الخالق تبارك وتعالى ، وتصديقهم بما نزل في كتابه الكريم وما ثبت من سنة نبيه عليه أفضل الصّلاة والتسليم .

---

(1)سورة البروج (آية 8) .

وكثيراً ما تعرّض طلبتهم في بلاد الإسلام وغيرها لأنواع المضايقات من قبل إخوانهم وزملائهم ـ مع ملاحظة ما يكنونه لهم من الود ويضمرونه لهم من الصفاء والخير ـ حتى بلغ الأمر ببعض سفهاء الأحلام أنهم كانوا يدعون الطلبة الإباضيين إلى إعلان الشهادتين ليكونوا في عداد المسلمين ، كأنهم ـ في نظر أولئك ـ من الملاحدة والمشركين .

وهو أمر يستدعي أسف كل ذي لب ، وحسرة كل من كان له قلب ، كيف ينزل الإباضية أهل الحق والإستقامة هذه المنزلة مع رسوخ قدمهم في التوحيد ، وصفاء مصدرهم في العقيدة ، وما عرفوا به بين الخاص والعام من الورع في الدين والخشية من بأس الله ، وما الذي ارتكبه الاباضية حتى ينزل بهم هذا الحكم ، ويعاملوا بهذه الطريقة ؟؟ .

إن أهم ما تذرع به أولئك الذين أصدروا فيهم تلك الأحكام الرهيبة ، وعاملوهم بهاتيك المعاملة النكراء ثلاث قضايا كان للإباضية فيها موقف لم يتفق مع رغبات أولئك الحاقدين ، فعدوا كل قضية منها مبررة للحكم عليهم بالكفر وقطع حبال الصلة بينهم وبين سائر الأمة مع أن الإباضية لم ينفردوا بموقفهم دون سائر طوائف الأمة ، فثم الكثير من الذين رأوا في هذه القضايا رأيهم وأيدوا موقفهم كما سيتضح ذلك من خلال هذه الدراسة إن شاء الله ، على أنهم في كل قضية منها أخذوا بحجز النصوص القرآنية والسنة الثابتة عن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام . . . والقضايا الثلاث هي :

(أ) إنكار رؤيوة الله تعالىٰ .

(ب) القول بخلق القرآن .

(جـ) اعتقاد تخليد الفساق في النار .

وقد إنهالت عليَّ أسئلة الطلبة من هنا وهناك عن موقف أصحابنا في هذه القضايا الثلاث ، وما يستندون إليه من دليل ، ونظرتهم إلى أدلة من يقولون بخلاف قولهم ، ولم يكن لطلبتنا من قبل أي إهتمام بالقضايا الخلافية وبحثها ما عدا المتخصصين منهم في دراستها ، وإنما دعاهم إلى هٰذا الإلحاح في طلب كشف النقاب عن وجه الحقيقة فيها ما يلقونهم من عنت ويواجهونه من إحراج من قوم لا يهمهم إلاَّ إثارة شحناء كانت نائمة ض، وتسعير فتنة كانت خادمة ، فدعاني ذلك إلى تحرير هذه العجالة التي سوف يجد فيها القارىء الكريم إن شاء الله دراسة وافية لكل قضية من هذه القضايا بتلخيص أدلة كل فريق وبحثها على ضوء قول الله عزّ وجلَّ وقول رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام ، مع استلهام فهم مقاصدهما بالرجوع إلى قواعد اللسان العربي المبين ، الذي شرفه الله بأن جعله وعاءً للقرآن الكريم وطبع عليه لسان نبيه الخاتم عليه أفضل الصّلاة والتسليم ، وستدرك أخي القارىء ـ إن شاء الله ـ من خلال دراستك لما أقدمه إليك ، أن الإباضية لم يستامدوا عقيدتهم من فلسفة اليونان وغيرها من أساطير الأولين كما يحلو زعم ذلك للذين يهرفون بما لا يعرفون ، وإنما استمدوها من أصفى ينابيع الحق ، وأنور أشعة الحقيقة ، فقد احتكموا إلى الكتاب العزيز

والسنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، عملاً بقوله تعالىٰ : ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾[1] .

وإذا خفيت عن الغبي فعاذر
أن لا تراني مقلة عمياء

وقد كنت حريصاً من قبل على عدم الخوض في مثل هذه القضايا الجانبية وعدم اتخاذ موقف من هذه المهاترات إلاَّ الصمت ، فالحق أضفى وأبين من أن تكدر الشُّبَهُ صَفْوَه أو تحجب نوره .

وفي تعب من يحسد الشمس ضوءَها
ويجهد أن يأتي لها بضريب

ولن يضر هجر المقال إلاَّ قائله دون من قيل فيه ، فما الذي ضر المرسلين وأتباعهم مما قيل فيهم من الإفك ، ورموا به من التهم ، وهذه هي سُنة الله في خلقه ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين﴾[1] .

وإنا وما تلقي لنا من هجائنا
لكالبحر مهما يلق في البحر يغرق

---

(1)سورة النساء (آية 59) .

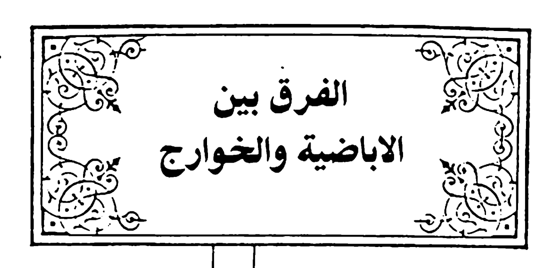
(1)سورة المطففين (الآيات 29/33) .

ولكني رجحت جانب الرد على الصمت تبياناً للحق ودفاعاً عن الحقيقة ، ووقوفاً في وجوه الذين يضرمون الفتن ويؤججون الأحقاد بهذه المحاولات ، لتمزيق شمل الأمة وتفتيت وحدتها ، إذ لا يعلم إلاّ الله عاقبة هذه الفتنة إذا اضطرمت نارها وخَمِيَ أوارها والعياذ بالله .

ولعمر الحق إن ما تعانيه اليوم أُمة الإسلام من محن وفتن وتشتت وضياع لجدير بأن يستدر لها عطف عدوها اللدود ، ويعتصر لها الرّحمة من قلوب خصومها القاسية ، فكيف نسمح بمضاعفة بلائها وإنكاء جروحها من جديد ، بأمثال هذه المهاترات من غير أن نتصدى لها بالرد المقنع بالحجة والبرهان ، لذلك قمت ، مع اشتغال البال وتراكم الأعمال ـ بتحرير هذه العجالة تبيناً لحجة (الحق الدامغ) واستئصالاً لشبهة الباطل الزاهق ، والله هو الذي يحق الحق ويبطل الباطل **﴿بل نقذف الحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾**[2] .

---

(2) سورة الأنبياء (آية ١٨) .



... إن الاباضية لم يسلوا السيف على أحد من أهل التوحيد قط ولم تقع منهم حرب ضد أحد من المسلمين وحتى عند اشتداد الأزمة ...

الفرق بين الاباضية والخوارج(1)

بقلم : الشيخ أبو إسحاق
إبراهيم اطْفيَّش[1]

كتب أبو اسحاق هذا البحث بناء على طلب الشيخ ابراهيم محمد عبد الباقي من علماء الازهر ، ونشره في كتابه « الدين والعلم والحديث » ص 252 ـ 264 في معرض حديثه عن الفرق الاسلامية ، تحت عنوان « نبذة عن الخوارج » .

وقال مؤلف كتاب الدين والعلم والحديث قبل سياقه للبحث « ولما كان الوقت شحيحا يضن لي بالبحث عنهم ـ أي الاباضية والخوارج ـ والتنقيب ، اتصلت بمن له خبرة بهم ، وهو زعيم طائفة منهم تسمى الاباضية ، هذا الزعيم يسمى أبو اسحاق ابراهيم اطفيش ، موظف بدار الكتب المصرية ، فكفاني مؤنة البحث » كما نشره الشيخ محمد السالمي وناجي عساف في كتابهما « عمان تاريخ يتكلم » ص 103 ـ 114 ، ونشره أيضا الشيخ علي يحي معمر رحمه الله في كتابه القيم « الاباضية بين الفرق

---

(1)الشيخ أبو إسحاق أطفيش (جزائري ت :1965 م) من علماء الاباضية المرموقين والمحققين ،عاش بمصر وتوفي بها ،شغل منصب مصحح بدار الكتب المصرية .

الاسلامية » ص 468 ـ 476 ـ الطبعة الاولى

الخوارج طوائف من الناس في زمن التابعين وتابع التابعين ، رؤوسهم نافع بن الازرق ، ونجدة بن عامر ، وعبد الله بن الصفار ومن شايعهم ، وسموا خوارج لأنهم خرجوا عن الحق وعن الامة بالحكم على مرتكب الذنب بالشرك فاستحلوا ما حرم الله من الدماء والاموال بالمعصية متأولين قوله تعالى **﴿وان اطعتموهم انكم لمشركون﴾ فزعموا أن معنى الآية وان اطعتموهم في** أكل الميتة ، فأخطأوا في تأويلهم ، والحق ان معنى الآية : وان اطعتموهم في استحلال الميتة . والاستحلال لما حرم الله شرك ، وحين اخطأوا في التأويل لم يقتصروا على مجرد القول بل تجاوزوه الى الفعل فحكموا على مرتكب المعصية بالشرك فاستحلوا دماء المسلمين وأموالهم بالمعصية فاستعرضوا النساء والاطفال والشيوخ .

وقد كان الامام الحافظ الحجة الربيع بن حبيب بن عمرو البصري الفراهيدي الاباضي صاحب المسند الصحيح رحمه الله حين بلغ اليه أمرهم يقول : دعوهم حتى يتجاوزوا القول الى الفعل فان بقوا على قولهم فخطؤهم محمول عليهم وان تجاوزوه الى الفعل حكمنا فيهم بحكم الله .

فلما ظهرت بدعتهم طردهم أصحابنا من مجالسهم وطاردوهم في كل صوب معلنين البراءة منهم ، فلما تجاوزوا القول الى الفعل اعلنوا الحكم بكفرهم ـ لان الكفر في استحلال ما حرم الله نص في كتاب الله قطعي ، وقد استشرى فعلهم يومئذ فاشتدوا على اهل التوحيد بفتنتهم فسلوا السيوف على الرقاب بغير ما أنزل الله فعظمت محنتهم ، فكانت بلاء عظيما .

وقد تولى قتالهم المهلب بن ابي صفرة الأزدي العماني القائد الأموي

المشهور وكان يضع الحديث في استنفار الناس الى قتالهم فعظمت محنتهم المزدوجة : محاربة المسلمين وانتشار الاحاديث الموضوعة في قتالهم حتى بلغت المدى من الشر فزادت الطامة ، ولما كان هؤلاء الخوارج من مكفرّة التحكيم فقد تولى كثير ممن ينتمون الى المذاهب العديدة ادماج الاباضية في هؤلاء الخوارج ظلما وعدوانا والسبب في ذلك عديد المناهج :

أولا : أن اصحابنا الاباضية - يرون الملك العضوض لا تجب طاعته بل الواجب أن يكون الحكم على منهاج الخلفاء الراشدين لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « اقتدوا باللذين من بعدي ابي بكر وعمر » حديث صحيح متفق عليه ، ولما روى في عمار بن ياسر رحمه الله « ستقتلك الفئة الباغية واستشهد بهذا الحديث منكروا التحكيم ولم ينكره الفريق الآخر فثبت كنص قاطع ارتضاه الفريقان ولو اختلفا في تأويله اذ الفريق الآخر حمله على معنى غير صحيح وانما دعاه الغرض الى حمله على ما يقتضيه ذلك الهوى » .

ثانيا : ظهور أصحاب الأهواء في واقعة النهْرَوان اذ زعموا أنها لأجل الخروج على علي وهو امامهم والحقيقة التي لا مزية فيها ان أهل النهْرَوان لم يخرجوا عن علي قط ولكنهم حين أبوا التحكيم وأصروا عليه جنح أبو الحسن الى فريق التحكيم فرأى منكرو التحكيم ان البيعة لم تكن في اعناقهم بل هم في حل منها حيث ان التحكيم في شيء معناه غير ثابت الحكم والا فلم التحكيم ؟ فاعتبروا التحكيم تنازلا من الامام أبي الحسن عن البيعة - اذا منكرو التحكيم في حل من أمرهم فلهم الحق ان يختاروا من يشاؤون اماما لهم فاختاروا رجلا من أفضل الناس يومئذ ومن الصحابة الكرام وهو عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي ، فلما بايعوه بعثوا الى أصحابهم يومئذ ومنهم الامام علي ان يدخلوا في البيعة لمن اختاروه اماما .

فرأى علي بن أبي طالب أن البيعة حصلت لأزدي لا لقريشي وحاربهم قبل أن يتقوى أمرهم فتخرج الامامة لغير قريش ، وهذا هو السبب الوحيد لواقعة النهروان .

لهذا دعاهم حين ناظرهم الى ان يحاربوا عدوهم معاوية ومن معه ولكن الأمر قد فات فقد أخذ الأمر معاوية من الحكمين : عمرو بن العاص وأبي موسى الاشعري في دومة الجندل فأصبح المسلمون في حل من أمرهم ، لأن بيعة عبد الله بن وهب لم يقع الا بعد حصول النتيجة بوقوع ما حذر منه أولو البصائر من منكري التحكيم - وهو أن التحكيم تلاعب بالأمر تولى كبر الدعوة اليه الأشعث بن قيس الذي دس على أصحاب علي من قبل معاوية .

وليس اذا ما يزعمه محرفو التاريخ ومتعفنة المذهبية ان واقعة النهروان كانت بسبب الخروج على علي لأنهم لم يخرجوا والبيعة في أعناقهم فليتنبه المتبصر من الزلة في هذا المقام فان الأهواء متغلغلة في أصحابها بما لا خفاء فيه .

الثالثة : ان تسمية الخوارج لم تكن معهودة في أول الأمر وانما هي انتشرت بعد استشراء أمر الأزارقة كما قلنا ولم تعرف هذه التسمية في اصحاب علي المنكرين للتحكيم والراضين به ولعل أول ما ظهر هذا اللفظ بعد ثبوت الأمر لمعاوية والاستقرار فيه حين زاده الأحنف بن قيس التميمي وهو من أهل النهروان فقال معاوية : لماذا أجبك الناس وأنت من الخوارج فقال له الأحنف لو عاب الناس الماء ما شربته .

يعني الذين لم يرتضوا بيعته والدخول في أمره - راجع الأمالي لأبي علي القالي .

أترى أن معاوية يصف الأحنف بن قيس بالخارجية لأنه كان مع من

حاربهم علي يوم النهروان أو لأنه لم يكن في بيعة معاوية ، ولو كان وصف معاوية للأحنف بالخارجية لكونه من أهل النهروان لكان معاوية ومن معه أولى بهذا الوصف لأنه هو الذي سل السيف ضد علي ومن معه يوم صفين ولأنه هو الذي جنح عن بيعة الامام علي ، والحال قد بايعه أهل الحل والعقد فأصبحت بيعته حقا يجب اتباعه والدخول فيه على كل واحد من المسلمين .

الرابعة : ان الاباضية لم يسلوا السيف على أحد من أهل التوحيد قط ولم تقع منهم حرب ضد أحد من المسلمين وحتى عند اشتداد الأزمة من الحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه فقد اشتدوا في مطاردة المسلمين لمجرد الظنة حتى خرج عليهم التوابون وعلى رأسهم سعيد بن جبير وابراهيم النخعي وهما امامان وقد قتل الحجاج سعيد بن جبير أحد أئمة التفسير والعجب كل العجب ان هذه المجموعة الكبرى من العلماء الذين حملوا السيف أمام الجور الذي ظهر بفظاعة من الحجاج لم يطلق عليهم أحد اسم الخوارج بل اطلقوا عليهم اسم التوابين وهم كلهم من حملة لواء العلم وماتوا جميعا في القتال ما عدا ثلاثة فيما يبدو : سعيد بن جبير وابراهيم النخعي وعبد الله بن مطرف . فان العقل يقف مشدوها أمام هذه الفاجعة الكبرى ومع ذلك تمر على القراء بسلام .

ولكن الذي يمحص التاريخ بأنصاف وعلم يرى في اطلاق لفظ الخوارج على الاباضية ـ وهم من الخوارج براء ـ مغزى وهو أنهم رأوا أن الامامة لا تختص بقريش بل هي تصح لكل من اختاره المسلمون لسياسة دولتهم ورياستها وهذا هو الحق الذي دل على كمال البصيرة اذ ليس من الحكمة ان يجعل الله أمر البشر على سائر أجناسه وأممه تابعا لقبيلة واحدة سواء أحسنت أم أساءت والوضع الطبيعي في البشر هو الذي أيد ما ذهب اليه

أصحابنا وحملوا عليه حديث « الأئمة من قريش » ومن المكابرة ومجانبة الحق أن يزعم الزاعمون اختصاص سياسة الأمم بقريش ولم يرتضه الأنصار وهم أهل الفهم لما بعث به محمد صلوات الله وسلامه عليه حين قالوا لأبي بكر منا أمير ومنكم أمير ، ولا أبو بكر حين رد على الأنصار بقوله : منا الأمراء ومنكم الوزراء ان العرب تدين لهذا الحي . يعني قريش فعلل الحكم بانقياد العرب لقريش لا لشيء آخر مما يزعم أهل الأهواء السياسية والمذهبية . أترى الأمم على سائر أجناسها تنقاد الى رجل من قريش لمجرد أنه قريشي ؟ كلا والله .

خامسا : ان الاباضية يبتغون العدل وينشرون العمل بالكتاب والسنة والسير على مناهج السياسة التي سار عليها الخلفاء الراشدون سواء قام بالأمر قرشي أم حبشي . عربي أم عجمي كما ورد في أحاديث صحاح لهذا ارتضوا سيرة عمر بن عبد العزيز حين أرسلوا اليه وفدا من البصرة يتألف من ستة علماء جهابذة : جعفر بن السماك وأبو الحر علي بن الحصين العنبري والحتات بن كاتب والحباب بن كليب وأبو سفيان قنبر البصري وسالم بن ذكوان ـ وربما كانوا أكثر من هؤلاء الا أن الذين وقفت على اسمائهم هم هؤلاء رحمهم الله جميعا وحيث ذكر مؤرخو قومنا وفود هؤلاء على عمر بن عبد العزيز قالوا كعادتهم في الغمز : أرسل اليه الخوارج وفدا . ولم يذكروا ما جرى بينهم وبين الخليفة عمر من الحديث وقبوله منهم كل ما أرادوه منه من نشر العدل وتطهير البلاد والمنابر من اللعن الذي اتخذه الأمويون سنة فان الوفد قال له ان المسلمين يلعنون عليّا على المنابر فلا بد من الشروع في تغيير المنكر فابدل اللعن بقوله تعالىٰ ﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾ لم تسمح نفوس أولئك المؤرخين الذين أعمت

بصيرتهم الاهـواء أن يـذكروا تلـك المنـاقب التي ظهرت من الاباضيـة من نشدان الحق والوقوف في وجه الظلمة بالمساجلة كما فعل الامـام عبـد الله بن أباض مع عبد الملك ابن مروان . وأبو بلال مرداس بن حدير مع زيـاد بن أبيـه ولم يسلوا السيف كما فعل الخوارج ، بل سلكوا سبيـل البيـان معرضين عن السنان لأنهم يرون عصمـة الـدم بـالتوحيـد لا الـه الا الله وعصمـة المـال كذلك ولم يكن منهم ما كان من أعمال غيرهم في سبيل تأسيس السلطان أو حمل النـاس على اعتنـاق مـذهبهم بـالسيف وقطع العـذر بل تركوا النـاس أحرارا في أرائهم وأعرضوا عن الـدنيـا ان كانت بغير حلهـا وتركوا لأربـاب المذاهب مذاهبهم في حرية تامة لأنـه لا اكراه في الـدين فـالحق مقبول من أي كان والباطل مردود على صاحبه محمول عليـه فـأهل القبلـة عنـدهم كافـة سواسية في الحق والحرية في الاعراب عن آرائهم الفرعية والحرية كفيلة لكل الناس بعد الاعتراف لله بالوحدانية والحرية هي الأصل في الانسان حتى ان المكاتب عندهم حر من أول يوم وما كاتب بـه فـدين عليـه يؤديـه ولم يقل بهذا غير الأباضية لأنهم أدركوا من الشريعة ما فاقوا به سواهم .

فبان عنهم الخوارج بما ذكرنا من شنائعهم وكبائرهم ، ولم تكن لهم صلـة بالأباضية حتى يقال أنهم خوارج . ولقـد كشفت للمنصفين من قومنـا هـذه الفروق فأدركوا الحق واعترفوا به . والرجوع للحق فريضة وفضيلة .

سـادسـا : الأبـاضيـة يجيزون المنـاكحـة بينهم وبين سـائر المـوحـدين والخوارج لا يجيزون التنـاكح مع غيرهم لأنهم يرون سـواهم مشركين كما بينـا وأوضحنا وعلى هذا لا يجوز أيضا التوارث بينهم وبين من يخـالفهم بطبيعـة الحال لأن الشرك الذي منع المناكحة والمصاهرة يمنع الموارثـة . فهل تعـامى عند هذه الفروق الذين تعفنت نفوسهم وأصيبت أبصارهم بالعشي ذلـك مـا يشاهده الـذي يقلب أطوار التـاريخ في مـدونـات قومنـا ولم يعتبروا قولـه

سبحانه (ان الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا) وقوله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى) .

ان المسلم ليحار من أمر أولئك المتقولين على أهل الحق والاستقامة ـ الأباضية ـ كيف استساغوا ذلك لأنفسهم لا لشيء الا للهوى والشهوة الخفية نعوذ بالله من الهوى وانكار الحق .

أولا يتذكرون أنهم سيلاقون الله بذلك الافك . ام اعتقاد الخروج من النار هون كل شيء في سبيل الهوى .

سابعا : الأباضية اتجهوا الى خدمة الاسلام علما وعملا منذ ابتدأت الفتنة فاشتغلوا بالتدوين فكانوا أول من دون الحديث فامامنا جابر بن زيد أول من دون الحديث وأقوال الصحابة في ديوانه الذي وصفوه بأنه وقر بعير ، ثم تلاميذه من بعده وهم حملة العلم الى المشرق والمغرب ، والخوارج جنحوا الى اراقة الدماء واخافة السبل وتعطيل الاحكام ولم يذكر عن أحد من الخوارج ألف كتابا والذين يذكرون المؤلفات للخوارج انما يذكرون الأباضية وهم دون شك يريدون بهم التشنيع والتشغيب أما الصفرية والازارقة والنجدية فلم تذكر لهم رواية ولا تدوين ولو انفرد نجدة بن عامر برواية حديث ونافع بن الأزرق بأسئلة سألها ابن عباس ليس هذا محلها وأريد أنهم جنحوا الى الحروب لا الى التأليف ورواية العلم وكل من ذكره قومنا من رجال العلم ونسبوه للخوارج فليسوا الا من الاباضية ، ولقد أتى أصحابنا في تدوين العلوم بالعجب العجاب وعرفوا بالصدق والامانة والورع ما لم يبلغ شأوة غيرهم فلجأ بعض الكاتبين من قومنا الى تشويه الحقائق بالدعاية الفاجرة والبهتان حين بهرتهم تلك الانوار الساطعة وما خلطوا بين الاباضية والخوارج الا لطمس معالم الحق والصواب حسدا

من عند أنفسهم وأنى لمن اتخذ التشغيب مطية أن يعترف بالحق والصواب وقد عميت بصيرته . وانك لترى لهؤلاء من العمل على اخفاء ما يرونه من أصحابنا من الكمال الديني والعظمة العلمية ما جعلهم يذكرون لهم في موجب الذكر شيئا ، واني رأيت مؤلفات دونت في التاريخ والادب والفروع لبعض قومنا يستوجب المقام ذكر أصحابنا لما لهم فيما دون من الضلع فلا يتورع أن يتجاهل ذكرهم كأنهم لم يكونوا ، وذلك مبالغة وامعانا في طمس الحق . ولا تجد من أصحابنا شيئا من هذا الاسلوب بحمد الله والحمد لله العلي الكبير .

ثامنها : ان قومنا حين جمعوا الحوادث التاريخية واقتضت الحال أن يذكروا أصحابها فشلوا في قيل الصواب فخلطوا بين الأباضية والخوارج فتارة ينسبون الأباضية للخوارج وتارة ينسبون الخوارج الى الأباضية كما يفعل الكثير من المدونين في الاصول والفروع في اضافة أقوال المعتزلة الى الأباضية والعكس مما أوجب التخليط والتشويش فيذهب المؤلفون الذين يعتمدون على النقل الى ما هو أشبه بالتهريج ولا عذر لهم عندي مطلقا لان الذي ينشر الحق يطلبه من ينبوعه لا أن ينتحله حسب هواه .

انا نجد من يزعم ان ابا بلال مرداس بن حدير من الخوارج وقطري بن الفجاءة من الأباضية والامر على عكس من ذلك وآخر يذكر أن الامام طالب الحق عبد الله ابن يحيى الكندي هو الامام عبد الله بن أباض والحق خلاف ذلك اذ الامام عبد الله بن أباض توفي آخر أيام عبد الملك بن مروان ، وعبد الله بن يحيى طالب الحق ظهر أيام مروان الحمار سنة 130 هـ وهكذا يخلط الكاتبون من قومنا هذه الحقائق الهامة تشويها وتشغيبا وانظر الى تاريخ الاندلس الذي يوجد بين أيدينا اليوم ولا نجد للاباضية ذكرا والحال أن الأباضية بلغوا في الأندلس مبلغا عظيما من العلم

والمال حتى أن جزيرة اليابسة التي هي من الأندلس كانت كلها أباضية الى القرن السادس بل الى نكبة الأندلس الكبرى .

وانك لتقرأ طبقات ابن سعد مثلا فلا تجد ذكرا لرجال الأباضية عدا الامام جابر بن زيد فانه ذكره رغم أنفه لشهرته التي اطبقت الآفاق وهكذا . والحق الذي لا ريب فيه ان رجال كل قوم قومهم أولى بهم والتاريخ أهله أولى وأعرف به من سواهم (**والله يقول الحق وهو يهدي السبيل**) .

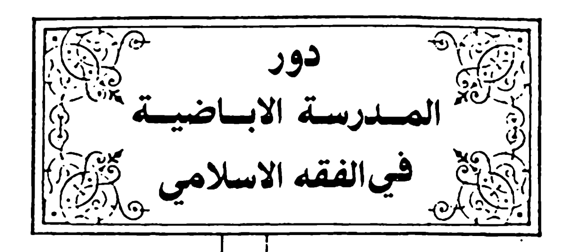
ولقد استوجبت بدعة الخوارج أحكاما شرعية ، قال المسلمون يجب الفرز بين الكبائر حتى لا يقع الانسان في جريمة الخوارج فالكبائر قسمان كبائر الشرك وهي كل كبيرة أخلت بالاعتقاد كاستحلال ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله أو انكار ما علم من الدين بالضرورة أو جحود حكم قطعي كالرجم الى أمثالها وكبائر النفاق ، وهي كبائر الكفر بنعمة الله - وهي ما يطلق عليه عند أهل الحديث كفر دون الكفر - وهي كبائر الفسق عند قومنا - وذلك كارتكاب فاحشة من الزنى والاتيان في الاعجاز أو أكل الحرام أو شهادة الزور أو عقوق الوالدين وما أشبه ذلك من كبائر عملية . وكترك فريضة من فرائض الله غير مستحل كل ذلك يسمى عند أصحابنا بكبائر النفاق وكبائر الكفر بالنعمة واذا أطلق أصحابنا الكفر انصرف بالقرينة الى الحكم فيه هل هو مما يخل بالعقيدة أو هو من الفعل أو الترك فيدرك نوع الكفر أهو كفر نفاق أو كفر شرك على أن أصحابنا لا يكفرون تشهيا ولا يكفرون أهل القبلة ما دانوا بكلمة الاخلاص والحق انهم انفردوا بذلك ولو ادعاه أرباب المذاهب واذا أدركت هذا علمت أن بين الأباضية والخوارج بونا بعيدا لا يجمع بينهما جامع الا انكار التحكيم وهو الحق الذي يؤيده كتاب الله وسنة رسول الله وسيرة العمرين واجماع

المسلمين . فشد يدك على الحق **(ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم) .**

وقد قال بعض أصحابنا وبه قال قومنا أن الخوارج ينكرون الرجم والذي عندي ان هذا القول غير صحيح الا اذا نظرنا الى حكمهم بأن مرتكب الكبيرة مشرك حلال الدم فان الزاني عندهم يقتل ردة لا حدا وهذا متفرع عن حكمهم قطعا لا يحتاج الى دعوى نكران الرجم ولكن الأمر عندي ليس كما يتوهم وانما زعم من يزعم من قومنا أن الخوارج ينكرون الرجم فيه مغمز ، لكنه يعود على الزاعمين بطامة . وذلك ان قومنا رووا انه كان مما يتلى في كتاب الله في سورة الاحزاب الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم فأكلته العنزة . فيترتب على هذه المقالة ان القرآن وقع فيه نقص والعياذ بالله وهذه الطامة تلازمهم وان فروا منها بزعم أنه ممّا نسخ لفظه وبقى حكمه ، ولكن أصحابنا يقولون الرجم فرض لا من القرآن ولكن من الحديث فقد روى الحافظ الحجة الامام الربيع في صحيحه عن الامام جابر بن زيد :

« الاستنجاء والاختتان والوتر والرجم سنن واجبة » فصان الله الاصحاب من الخطل والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

أبو اسحاق ابراهيم اطفيش



هذا المذهب ليس مستحدثاً وإنما نشأ متأصلاً على القواعد الصحيحة مدعماً بالأصول الواضحة الثابتة ، فبالنظر والتتبع لا يوجد في فقهه ما يخالف الكتاب ولا السنة النبوية ولا عموم الأصول التي اتفق عليها المسلمون جميعاً .

دور المدرسة الاباضية في الفقه الاسلامي(1)

بقلم : دكتور إبراهيم عبد العزيز بدوي

المدرسة الإباضية نشأت كما نشأ غيرها من المدارس الإسلامية بأئمتها وعلمائها ، طبقات يأخذ بعضها عن بعض إلى اليوم ، والطريقة التي قامت عليها لا تختلف كثيرا عن بقية الطرق التي قامت عليها المدارس الإسلامية الأخرى ، والمدرسة الإباضية من حيث نشأتها وتطورها وحركتها يظهر أنها من أحرص الناس على التقليد بما أتت به الشريعة من أحكام المسلمين ، وهم يعتقدون أن كل من نطق بالشهادتين فهو مسلم ، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، فلا يستحلون دماء أحد من أهل القبلة إلا بالحق الذي حددته الشريعة الإسلامية .

وللمذهب الإباضي أثر كبير في البحث والتدوين في شتى المجالات العلمية وما يصادف الحياة من مشكلات يومية ، فدونوا الأحاديث وشرحوها واستنبطوا الأحكام وطبقوها وتعرضوا للعقائد ونزهوها : ودونت لهم مؤلفات شتى في الحديث والفقه والعقائد والتاريخ وغيرها من صنوف العلم وآدابه ، حيث أصبح لهم مكان فسيح في الدراسة للمنهج الذي ساروا عليه .

---

(1)الدكتور إبراهيم عبد العزيز بدوي (مصري) مدرّس الفقه المقارن بكلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر . دور المدرسة الإباضية في الفقه الإسلامي .

فيقول : ان الفقهاء اختلفوا في تأويل أخبار النبي ﷺ التي تتعلق بأحكام الشريعة ، وتنازعوا صحة الحكم بها ، لأنها قواعد الفقه وأصول دين الشريعة ، ومن أراد الوقوف عند هذا والتفقه في الدين ، فالواجب عليه أن يتعرف على أصول الفقه وأمهاته ، ليكون بناؤه على أصول صحيحة وليجعل كل حكم في موضعه ، ويجري به على سنته ، ويستدل على معرفة ذلك بالأدلة الصحيحة والاحتجاجات الواضحة والا يسمى العلة دليلا والدليل علة ، والحجة علة ، وليفرق بين معاني ذلك ليعلم افتراق حكم المتفرق ، واتفاق المتفق[3] .

فهذا دليل على قدم البحث في هذا الفن ، كما أن هذا المرجع المشار إليه قد بسط البحث في علم الأصول حتى أنه استغرق الجزء الأول منه وهو يقع في مائة وستين صفحة وتطالعنا مراجع الاباضية بما يتفق واتجاه أهل السنة في الأصول الأساسية التي بنى عليها الفقه الاسلامي . فيقولون : أصول الدين هو ما جاء فيه حكم من كتاب الله تعالى ومن سنة نبيه محمد ﷺ ومن اجماع المهتدين من علماء الأمة .

فإذا أفتى الفقيه بقول يوافق هذه الأصول الثلاثة ، أو ما يسببها (القياس) وما هو مثلها ، فلا يجوز لفقيه وصلته هذه الفتوى أن يقول بخلافها ، فما وجد في الأصول الثلاثة وهي : الكتاب والسنة والاجماع فهو

=واحد وأربعين مجلدا وما حصلت عليه من هذه المجلدات 22 مجلدا ينتهي آخرها بنهاية الكلام عن البيوع ، وهو لأبي بكر أحمد بن عبد الله بن موسى الكندي النزوى العماني المتوفي سنة 557 هـ .

(3) المصنف ج 1 ص 38 .

أصل ، وما لم يوجد فهو فرع ، ويقاس عليها ما لم يذكر في أحدها فالأصل ما عرف به حكم غيره والفرع ما عرف حكمه بغيره[4] .

ويقال لما جاء في كتاب الله فريضة ، ولما روى عن النبي ﷺ سنة ، ولما جاء عن الأئمة في العلم أثر ، وأحكام الشريعة كلها مؤخوذة من طريق واحد ، وأصل واحد هو كتاب الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ﴾[5] . وقال : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[6] وقال : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾[7] وقال : (من يطع الرسول فقد أطاع الله)[8] فوجب اتباع السنة بكتاب الله تعالى ، والاجماع أيضا علم بكتاب الله تعالى لأن الاجماع توقيف ، والتوقيف لا يكون إلا عن رسول الله ﷺ[9] .

وقالوا : ينقسم الشرع المسموع إلى ثلاثة أقسام : الأول : أصل ، والثاني : معقول أصل ، والثالث : استصحاب حال الأصل .

وينقسم الأصل إلى ثلاثة أقسام :ـ الكتاب والسنة والاجماع وينقسم معقول الأصل إلى ثلاثة أقسام لحن الخطاب ، وفحوى الخطاب ، ومعنى الخطاب .

وينقسم استصحاب حال الأصل إلى ثلاثة أقسام : براءة

---

(4) منهج الطالبين ج 1 ص 82 .

(5) سورة الأعراف (آية 3) .

(6) سورة الحشر (آية 7) .

(7) سورة النساء (آية 59) .

(8) سورة النساء (آية 80) .

(9) منهج الطالبين ج 1 ص 84 .

الاتجاه العلمي للإباضية

ولبيان بعض الاتجاهات العلمية للمدرسة الإباضية أضع عدة نقاط تحدد مكانة الإباضية في الفقه الإسلامي منها :

(1) يرى الإباضية أن المصدر الأول للشريعة الإسلامية في عقائدها وعباداتها ومعاملاتها وأخلاقها وتنظيمها هو الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن من أنكر منهم حكما أو حرفا أو آية أو سورة فهو مشرك أو مرتد .

(2) ينص الاباضية على أن سنة رسول الله ﷺ هي المصدر الثاني ، وهي درجات ، المتواتر منها قطعي الدلالة يفيد العلم ويوجب العمل ، ومنكره كالمنكر للقرآن ، والمشهور من السنة أقل درجة من المتواتر وأقوى من الآحاد ، وهو يوجب العمل به ولكنهم اختلفوا في حجية المشهور هل هي قطعية أو ظنية على قولين ، والآحادي من السنة ظني الدلالة والعمل به واجب ، والمرسل أضعف من الأحادي الا أنه يوجب العمل أيضا بشرط إذا كان لصحابي أو تابعي .

(3) يرى الاباضية أن الاجماع هو المصدر الثالث إذا استوفى الشروط التي ذكرها علماء الأصول وحجيته قطعية ، ومنكره فاسق ، ويأخذون الاجماع بقسميه القولي والسكوتي وأنه جائز الوقوع في كل عصر من العصور .

(4) ويرون أن المصدر الرابع القياس ، وهو القياس على الأسس المنصوص عليها في كتب الأصوليين .

(5) يرون أن المصدر الخامس هو الاستنباط بجميع طرقه ويهتمون بالمصالح اهتماما خاصا .

فالفقه عند الاباضية قائم على الكتاب والسنة والاجماع ، ثم القياس ،

والاستدلال والاستحسان ، والاستصحاب والالهام ، وللوقوف على مدى اعتماد الفقه الاباضي على هذه الأصول أشير إليها إشارة خفيفة من خلال مؤلفاتهم .

الأصول التي أعتمد عليها الفقه الإباضي

بالبحث في مراجع الاباضية وجدت وفرة عظيمة في الكلام في علم أصول الفقه معتمدة في مجملها على الشرح والتوضيح ، بل وجدت بعض علمائهم قد صاغ هذا الفن متنا بطريق القصائد الشعرية ، وينص على أن هذا العلم هو أساس الفقه ، وأنه أمر لازم لمن أراد أن يتقنه في الدين فيقول في مطلع قصيدته :

يا دائما للفقه من أسفاره	لازم فصول أصوله ومداره
لابد ركن فروعه من لم يكن	متجليا للأصل من أخباره
حد أصول الفقه علم يقتدر	به على استنباط أحكام السور
وسنة الرسول والاجماع	كذلك القياس مع نزاع
ومذهب الجمهور أهل العلم	ان القياس مثبت للحكم
وهو الصحيح لورود النص	منبها عليه أو مستقص[1]

كما يبدو لي أن الاباضية كان لهم باع طويل منذ زمن بعيد في تدوين هذا الفن والاشارة إليه ، ففي كتاب المصنف الذي تم تأليفه في القرن الخامس الهجرى . يشير صاحبه إلى أهمية هذا الفن في استنباط الأحكام الشرعية[2] .

---

(1) شرح طلعة الشمس ج 1 ص 18 .

(2) المصنف كتاب عام شامل يجمع بين شتى فنون العلوم الدينية بما فيها علم الكلام وعلم الأصول وعلم الفقه ولا أدري ربما يكون شاملا لأكثر من هذا أنه يقع في =

الذمة وشغل الذمة والاستحسان[10] ومن هنا يظهر أن الاباضية كان لهم عظيم الأثر في تدوين منهجهم ، وكيفية استنباط الأحكام الفقهية كما تشير إلى ذلك معظم مراجعهم القديمة والحديثة ، كالعدل والانصاف ، وقاموس الشريعة ، ومنهج الطالبين ، حيث بوب أصحاب هذه المراجع لعلم أصول الفقه ، وكثيرا ما يرجعون بمسائل هذا العلم إلى أئمتهم مؤسسي المذهب كأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، والربيع بن حبيب ، ومحمد بن محبوب بن الرحيل ، وغيرهم كثير . الا أنهم في اعتمادهم على سنة رسول الله ﷺ في أقوالهم أجد القدامى منهم يعتمدون اعتمادا كليا على مسند الربيع بن حبيب دون ما سواه من المسانيد الصحيحة ، أما المحدثون منهم وخاصة في القرن العاشر الهجري فوجدتهم يتعرضون لجميع المسانيد . فالسنة في منهجهم على ضربين : أحدهما : مجمع عليه وهو الذي لا يحتاج إلى البحث عن طلب صحته لشهرته عند الرواة ، وأهل التأويل وموافقته لحكم التنزيل .

ثانيهما : سنة مختلف فيها وهي التي لم تبلغ علم الكل وكثيرا ما يقع التنازع بين الأئمة فيها ، فلذلك يبحثون عن الأسانيد ، والمتون وصحتها ، والتنازع في تأويلها إذا صح نقلها ، فإذا اختلوا في حكمها كان رجوعهم فيها إلى كتاب الله تعالى .

والمتأمل في منهج الإباضية الفقهي يجد أنهم يجمعون في فقههم

---

(10) العدل والانصاف ج 1 ص 14 .

بين أهــل الحــــديث والرأي[11] . بــل هم إلى أهــل الرأي أقرب ، فالاستنباط عندهم يؤخذ من الكتاب والسنة والاجماع ، فإذا عرضت حادثة لم يرد في شأنها نص في هذه الأدلة الثلاثة أجروها على القياس ، فإن لم تتوفر العلة أجروها على الاستدلال : وهو الاستحسان والاستصحاب والالهام .

وفي هذا قيل « من علم في شيء من الأمور بعينه حكم ما جاء فيه من كتاب الله والسنة واجماع المهتدين من الأمة فهو عالم في ذلك الشيء ، فإذا أبصر وجه الرأي والقول بالرأي فيه واهتدى له ، كان فقيها فيه وعالما له ، وكان من أهل الرأي فيه كما كان غيره من العلماء ، فأي حادثة لها أصل تنبني عليه وتنتهي إليه ، فمن عرف تأويلها وأحسنها وأعد لها كان عليه التحري لذلك وتعلم ، ومن قال بالرأي في موقع الرأي ، وهو من يجوز له القول بالرأي باجتهاده فوافق الصواب كان مأجورا مصيبا .

وان خالف الصواب بالاجتهاد برأيه وهو من أهل ذلك كان معذورا بذلك ، وكان من الحق قريبا ، لا فرق بينه معنا وبين أصحاب الحق على الحقيقة[12] .

ومع أن الاباضية يقرون القول بالرأي إلا أنهم يقسمون موضع البحث والاستنباط إلى قسمين :

---

(11) أصحاب الحديث : هم أهل الحجاز ، أصحاب الأئمة مالك والشافعي والثوري وأحمد وداود ، وسموا بذلك لبنائهم الأحكام على النصوص ، ولا يرجعون إلى القياس إلا إذا لم يجدوا أثرا أو خبرا ، وأصحاب الرأي هم أهل العراق : أصحاب أبي حنيفة سموا بذلك لعنايتهم بتحصيل وجه القياس والمعنى والمستنبط من الأحكام وبناء الحوادث عليه : الملل والنحل للشهرستاني ج 2 ص 11 ـ 12 .

(12) المصنف ج 1 ص 88 .

ـ قسم لا يدخل البحث بالرأي فيه وهو الدين .
ـ وقسم يدخله الرأي وهو غير الدين .
(وفي هذا يقولون : من قال بالرأي في الدين فقد خالف معنى الرأي يسمى مخالفا في الدين ، لأن الدين لا يجوز اجراء الرأي فيه ، ولا يجوز الدين في الرأي ، ولأن الرأي حكمه ما عدا الدين ، والدين حكمه ما عدا الرأي)[13] .

ولعل ما فهمته هنا يكون هو المقصد : حيث أرى أنهم يقرون أن الأمور الثابتة بالكتاب والسنة والاجماع قد ثبتت ورسخت فلا حاجة للزعم بالفتوى بغير ما ثبت فيها ، ويقال : انه رأي ، أما الأمور التي تجد في عصر من العصور ولم يرد فيها نص ، فهي التي جعلت لمن كان عالما بالكتاب والسنة وآثار الأئمة السابقين بابا للدخول في بحثها واخراج حكمها .
وقالوا : سئل (أبو الربيع سليمان بن يخلف)[14] عن الذي يجوز فيه الرأي للعلماء ، قال ما لم يجدوه في الكتاب ولا في السنة ولا في الاجماع ، فإذا نزلت نازلة مما لم تكن في الكتاب ولا في السنة ولا في الاجماع ، ولا في آثار المسلمين الذين كانوا قبل النوازل فعليهم أن يجتهدوا فيها ، لأن الاجتهاد والرأي مقصوران على الحوادث والنوازل لا غير[15] .

ومع أنهم يقصرون الرأي على النوازل إلا أنهم يقرون الاجتهاد في فروع الشريعة ، بل يدخلونه تحت المأمورات ، فيقولون الاجتهاد مأمور به ،

---

(13) المصنف ج 1 ص 89 .

(14) هو سليمان بن يخلف المزاتي من تمزاوة بليبيا ، من علماء القرن الخامس الهجري توفي عام 471 : الطبقات للدرجيني ج 2 ص 425 .

(15) العدل والانصاف ج 2 ص 20 .

ومأجور عليه ، وكذلك يعتمدون في تفسير القرآن الكريم على التأويل ويقولون أن التفسير والتأويل بمعنى واحد ، وعليه أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة[16] .

لهذا أجدهم في مسائل الفروع أحيانا يتفقون مع أهل الحديث وفي الكثير يقتربون من أهل الرأي . كذلك يقرون بأن أصول الدين ثلاثة : الكتاب والسنة والاجماع وهم في هذا كأهل السنة . أما أهل الرأي فيزيدون القياس على أنه من الأصول ، أما الحكم على الاباضية بأنهم يجمعون في منهجهم بين أهل الحديث وأهل الرأي فيظهر من خلال موقفهم من خبر الآحاد فإذا ورد خبر أحادي صحيح في غير مسند الربيع قدموا عليه ، وقالوا فيه : لا يقع العلم لنابه .

ومن جملة هذا القول : ان منهجهم الفقهي يعتمد على العمل بالحديث فيما ثبت لديهم ، سواء أكان الحديث متواترا أم أحاديا .

ومن منهجهم أن الاجماع واجب العمل به لأنه توقيف ، فالقول بالاجماع واجب وهو أحد وجوه الحق لقول النبي ﷺ « لا تجتمع أمتي على ضلال » إذا فهو حجة لا تجوز مخالفتها ، وكل ما خالف الحجة فهو محجوج ، وإلى هذا يوافقنا بعض أهل الرأي .

وإذا كان الاباضية في منهجهم يعتمدون على الأصول الثلاثة : الكتاب والسنة والاجماع فهم أيضا يقرون العمل بجميع الأدلة كالقياس والاستصحاب والمصالح المرسلة والالهام ، إلا أنهم يقولون أن كل ما شابه الأصل فهو أصل وما لم يكن أصلا قيس

---

(16) جواهر التفسير ج 1 ص 16 .

على الأصل .

وكل هـذا يـؤكـد أن الابـاضيـة كان لهم منهجهم في الفروع والنوازل إلا أنهم كانوا يتقيدون بالأصول الثلاثة وهي الواجبة في البحث والفتوى ولا يخرجـون من هـذا التقيـد إلا إذا كانت المسـألة لا شبيهة لها في الأصـول الثـلاثـة ، وفي هـذه الحـالـة يـستخدمون القيـاس وغيره من الأدلـة وفي هـذا المقـام أذكر كلمـة موجزة عن الالهام .

الالهـام

الالهام عند الاباضية من أنواع الاستدلال .

وعرفه الاباضية بأنه ايقاع شيء في قلب الولي ينثلج له الصدر(17) .

وعرفـه (السمرقنـدي)(18) : بـأنـه مـا وقـع في القلب من غير تفكر واستدلال(19) .

وتعريف الاباضية أدق في قيوده حيث أنـه زاد شرط الولي لأن الالهـام خاص ببعض أولياء الله تعالى وأصفيائه .

وهذا الالهام قسمان : الهام النبي ﷺ ، والهام غيره من الناس .

القسم الأول : الهام النبي ﷺ . وهذا الالهام حجة اتفاقا لأنـه نوع من الوحي فهو حجة في حقه وحق غيره من المكلفين .

---

(17) شرح طلعة الشمس ج 2 ص 188 وفصول الأصول ص 357 هـ .

(18) هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز السمرقندى الحنفي توفى سنـة 701 هـ ، معجم المؤلفين ج 2 ص 121 .

(19) جامع الأصول في بيان القواعد الحنفية والشافعية للسمرقندى .

القسم الثاني : وهو الالهام من غير النبي ﷺ فانه ليس بوحي وفيه ثلاثة أقوال .

القول الأول : أنه ليس بحجة لعدم العصمة ، إذ لا يؤمن أن يكون ذلك وسوسة شيطان وخاصة أن غير النبي ﷺ ليس معصوما بخواطره .

القول الثاني : وهو قول جماعة من الرافضة سموا بالجعفرية ، وفيه أنه حجة في حق الأحكام بالنسبة للملهم وغيره ، بل ذهبوا إلى أنه لا حجة سواه[20] .

القول الثالث : وهو مذهب (الإمام الكدمي الأباضي)[21] وبعض الصوفية .

وفيه أنه يكون حجة في حق من ألهم دون غيره ، ويلزم الملهم العمل به[22] . وزاد السالمي في توضيح هذا الرأي فقال : إن كان الملهم ضعيفا فلا يكون ذلك الالهام بنفسه حجة يطابق القوانين الشرعية والقواعد الدينية ، فإذا طابقها كان حجة عليه ولزمه العمل به سواء أعلم أنه حجة أم لم يعلم إن كان ذلك الحال مما لا يسع جهله . وإن كان الملهم عالما مجتهدا فغالب أحواله لا يكون الالهام في حقه إلا في قضية لا يوجد لحكمها دليل متفق عليه ، وعلى هذا فينبغي أن يكون الالهام في حقه هو الاستحسان على بعض ما قيل في تفسير الاستحسان ، وهو عندنا حجة عليه .

أما ما قيل من أنه لا يؤمن أن يكون وسوسة شيطان فممنوع بأنه إذا

---

(20) التلويح على التوضيح ج 2 ص 15 وجامع الأصول ص 340 .

(21) أبو سعيد بن محمد بن سعيد الكدمي رضوان الله عليه من علماء القرن الرابع الهجري ـ العقود الفضية ص 277 .

(22) فصول الأصول ص 357 وشرح طلعة الشمس ج 2 ص 188 .

قامت الحجة على أحد وجب عليه الأخذ بمقتضاها علم أنه حجة أو جهل ، أمن الوسوسة فيها أو لم يأمن ، وغاية الأمر أن قيام الحجة من أمور القدرية فيجب الكف عن الخوض فيها[23] . والله أعلم .

وبعد ، فهذا ما يسره الله في الكتابة عن الأدلة الشرعية والتي ثبت من خلالها أن الاباضية لهم باع طويل في تأصيل الأحكام الشرعية .

كما أن الاباضية لا يختلفون مع أهل السنة في العمل بالأدلة المتفق عليها ، أما الأدلة المختلف فيها بين أهل السنة فإنهم دائما أبدا يوافقون بعض اتجاهات أهل السنة ولا ينفردون برأي يخالف أي اتجاه لهم ، فكل الأدلة محمولة على النص أو مقتبسة منه بما قرر من قواعد وكليات وهكذا أجد أن الاباضية كغيرهم من أهل السنة يحتاطون لاقرار الحقائق الشرعية معتمدين في كل ما استندوا إليه بالبناء على النصوص فإذا تعارضت مصلحة مع النص فهي عندهم من قبيل الأهواء النفسية والانحرافات الفكرية ، وكانوا على من ادعاها أشد نفورا وانكارا ، وأقوى غلظة واحكاما ، لذا شددوا الأمر في بيان الاجتهاد والمجتهد اطمئنانا على ثبات الأحكام الشرعية .

أثر مدرسة الاباضية في الفقه الإسلامي :

ومع بيان أثر الاباضية في الفقه الاسلامي أشير إلى أن الفقه الإباضي

(23) شرح طلعة الشمس ج 2 ص 188 لأبي محمد عبد الله بن حميد السالمى العماني ولد سنة 1286 هـ وتوفي سنة 1322 هـ .

يعتمد من حيث الأدلة بعد القرآن الكريم في مجال السنة الشريفة على المتواتر منها والمشهور ، والمستفيض وعلى الأحادي والمرسل ، وإذا تعارض الحديث والقياس رجح جانب الحديث ولو كان أحاديا أو مرسلا ، ولا يرد الحديث الأحادي إلا إذا صادفه نص قطعي ، ويقولون بالقياس والاستصحاب ، والمصالح المرسلة على التفاصيل والمناقشات الطويلة المعروفة في كتب أصول الفقه .

يتبين مما سبق أن مدرسة الاباضية كان لها أثر عظيم في الفقه الاسلامي يتضح فيما يأتي :

(أ) قامت هذه المدرسة في زمن تتابعت فيه المدارس الفقهية والفرق الإسلامية ، ونتيجة لهذا ، فقد تدرجت مباديء كل مدرسة على أيدي علمائها ، وتتابع روادها ، وكان أتباع كل مدرسة يحافظون على التمسك بها والعمل بخصوص المنهج الذي قامت عليه حتى تبلورت خصائص كل مدرسة في الامام الذي عاصر بدايتها حتى صار اسمه علما عليها ، وكذلك تدرجت مدرسة الإباضية على يد علمائها وكان علمها عبد الله بن إباض . فالطريقة التي قامت عليها المدرسة الإباضية لا تختلف عن غيرها من الطرق التي قامت عليها بقية المدارس ، والتي لا تختلف كثيرا عما نتبعه الآن في اتباع كل منا مذهبه في التحصيل والتدريس ، فإمام من أئمة المسلمين يجتمع عليه عدد من طلاب العلم يلتزمون مجلسه ويأخذون عنه ثم يتفرقون بعد التحصيل في البلاد ، فيتولى المتفوقون منهم الرواية عن إمامه متخذا كل منهم نفس أسلوبه في السلوك والتدريس ناقلا روايته ورأيه ، ثم تنتقل الطريقة مع الأجيال وكل جيل ينقل عن الجيل السابق ما حفظ من آثار وآراء تكتسب مع مضي الزمن شيئا من الاحترام والتقدير ، وربما تبلغ أحيانا درجة التقديس .

هذه الطريقة هي الطريقة التقريبية التي نشأت عنها جميع المدارس الفقهية وإن أختلفت أزمنة الأئمة ، وبالنسبة للإباضية فإنهم يقرون بأن مدرستهم نشأت بحضور عدد من علمائها مجلس جابر بن زيد رضي الله عنه متبعين منهجه ورأيه محافظين على الأخذ عنه أكثر من غيره . ومن هؤلاء العلماء ، أبو عبيدة مسلم ، وضمام ابن السائب ، وأبو نوح الدهان ، والربيع بن حبيب ، وعبد الله بن إباض وهم من جلة العلماء الأوائل لهذا المذهب .

(ب) قام علماء هذه المدارس الفقهية بالإحاطة بجميع مسائل الفقه الموجودة في زمنهم ووضعوا لها أصولا وقواعد واضحة ، كانت أساسا لرجوع المسائل التي تجد في أي عصر من العصور عليها ، والوصول إلى ما يرجى منها وبذلك حفظت الثروة الفقهية ، ونمت بإضافة ما استنبطوه بجهدهم ، فنما الفقه والتشريع ، واتسع الاستنباط وتعددت مجالاته .

(جـ) ان قياس هذه المدارس كان صلة بين عصرين متميزين في التشريع الإسلامي . عصر النبي محمد ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم ، وعصر العلماء التابعين المجتهدين في جميع البلدان الإسلامية ، فقام التشريع والفقه على الأسس الأصلية من الكتاب والسنة النبوية ، فقد كان لقيام هذه المدارس بالنسبة إلى من بعدها أثر عظيم في وضع الأسس والمباديء التي اتبعت في الاستنباط والتشريع ، وتأصيل القواعد القوية التي يمضي عليها المجتهدون من بعدهم .

(د) هذا المذهب ليس مستحدثا وإنما نشأ متأصلا على القواعد الصحيحة مدعما بالأصول الواضحة الثابتة ، فبالنظر والتتبع لا يوجد في فقهه ما يخالف الكتاب ولا السنة النبوية ولا عموم الأصول التي اتفق عليها المسلمون جميعا .

فالأصول ثابتة وراسخة لا خلاف فيها ، أما ما كان من خلاف في

بعض المسائل الفرعية فإنما يرجع إلى فهم النصوص من الكتاب والسنة واستخراج الأحكام الشرعية العملية منها ، وهذا لا يؤثر على نشأة الاجتهاد في شيء ولا على علم المجتهد ، لأن الخلاف في فرع من فروع مسألة ما من الزاوية التي تنظر منها إلى حكمة يعلمها الله وهي الرحمة بعباده ، لأنه سبحانه هو الذي أراد لدينه الخاتم التوسعة والرحمة بعباده ، فلو كان غير ذلك لبين المجمل وفصل العام وحدد كل شيء في نصوص لا تحتمل التأويل أو الخلاف .

وعلى هذا فالاختلاف بين المدارس الإسلامية المعتدلة في الفقه الإسلامي خلاف فرعي لا يؤدي إلى التزمت والتعصب الذي تتزعمه نسب ضئيلة غير متعمقة من اتباع هذه المدارس الفقهية .

والناظر في الفقه الإباضي يجد أنه قائم على قواعد خمس ، وهذه القواعد هي :

(1) قاعدة أن اليقين لا يتبدل إلا بيقين مثله ، وهو نوع من أنواع الاستصحاب لأن حكم اليقين مستمر وإن ورد عليه الشك حتى يتيقن انتفاء اليقين ومن أمثلة هذه القاعدة تيقن الطهارة مع الشك في الحدث فإن لصاحبه الأخذ باليقين وهو الطهارة .

(2) قاعدة أن الأمور بمقاصدها : فكل عمل لا يتحقق إلا إذا قصده صاحبه ومن أمثلة هذه القاعدة وجوب النية في الأعمال : لقوله ﷺ « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » .

(3) قاعدة المشقة تجلب التيسير : ومن أمثلتها : القصر والجمع والفطر في السفر .

(4) قاعدة العادة محكمة أي ضبطها الشرع وحكمها : ومن

أمثلتها بيان مدة الحيض والنفاس .

(5) قاعدة الضرر يزال ومن فروع هذه القاعدة وجوب رد المغصوب ، وضمان المتلف . كما كان للإباضية كغيرهم من المذاهب الإسلامية أثر عظيم في شتى صنوف العلم وتدوينها ، فتكلموا في جميع المسائل الفقهية والاعتقادية والأخلاقية بالدراسة والتحليل والتصنيف .

تصنيف المسائل الفقهية :

ففي تصنيف المسائل بدأوا بالعبادات وانتهوا بالمعاملات ، وأضافوا البحث في الطهارة ووظائفها ، والصلاة بحدودها وفرائضها ووقتها ، وبيان ما ينقصها ومعرفة أصولها ورخصها ، من صلاة وسفر ، وبيان فرضها وسنتها وغير ذلك مما سنه رسول الله ﷺ ، وأفصحوا عن الزكاة وصفوفها وأهلها ، كما بينوا الخمس من الغنائم وأهله ، وزكاة الفطر وشروطها وعلى من تجب مع تحديد وقتها .

وبينوا شهر الصيام وما يحمله من معان ، وأوجبوا فرضه مع الالتزام بكل ما شمله من خصائص المشقة بإمعان .

كما لم يتركوا منسكا من مناسك الحج إلا وبينوه للعامة والخاصة : فبينوا ما يجب من أعمال في حج بيت الله الحرام ومعرفة وجوب فرائضه وسننه . وتحريم الرفث والفسوق والجدال في الحج ونصوا على الاحرام من الميقات ، والوقوف بعرفة ، وزيارة البيت ، والطواف ، والسعي وما يلزم من الجزاء على من قتل الصيد وقطع شجر الحرم ، وبوبوا للمعاملات فحثوا على الاشهاد في البيوع ، وتحريم أكل أموال الناس بالباطل ، وتحريم مال اليتيم ورخصوا في السلم ، وفرقوا بين العقود الصحيحة والفاسدة ، والعيوب الظاهرة وغير الظاهرة في محل العقد ، والبيوع الجائزة والنهي عنها ،

وبينوا الشركة ، والشفعة والاجارة وأحكامها ، وبينوا الرهن وشروطـه ومـا يجوز للراهن والمرتهن ، والقراض ، والمساقاة ، والهبة وأقسامهـا ، والوصـايـا والمواريث وتكلموا في الصيـد والـذبـائـح ، وتحريم مـا أهـل لغير الله بـه ، وتحريم كل مـا حرم من الميتـة والـدم ولحم الخنزير ، وتحريم كل ذي مخلب من الطير وناب من السبـاع ، وتحريم مـا ذبح على النصب معللين لمـا أحل وما حرم ، ورتبوا النكاح وشروطه الصحيح منها والفـاسـد ، وحرموا نكاح المتعة والمطلقة ثلاثا على زوجهـا حتى تنكح زوجـا غيره ، وتحريم مـا حرم الله من نكاح ذات النسب والصهر والرضـاع . وكـذلـك بينوا العـلاقـة بين الأزواج ومـا يترتب عليهـا من عشرة ومعـاشرة ، فيحرم وطء المرأة في الدبر ، واظهـار الزينـة من المرأة لغير زوجهـا ، كما أفـاضوا في لين الجـانب وحسن المعاشرة وتحريم الوطء في الحيض والنفاس .

كما بينوا الأقضية والشهادات وما يتعلق بها من أحكام ، فحرموا الشهادة بغير علم وكتمان الشهـادة والايـمـان الكاذبـة وترك الارتيـاب والـوقـوف على الشبهات . وشرحوا حـدود الله وصنفوهـا ، ونصوا على الجهـاد في سبيل الله ومنزلته وعلى هذا لم يتركوا مسألة من مـسائل الفقـه الإسلامي . إلا وأفوهـا حقها من الايضاح والوقوف على مصدرهـا حتى لا أجـد خلافـا يـذكر بين الإباضية وغيرهم من المذاهب الفقهية في التصنيف والتدوين .

أهم المسائل الفقهية
التي خالف فيها الإباضية أهل السنة

تمهيـد :

بعد بيان الأصول التي أعتمد عليها الإباضية في استخراج الأحكام الشرعية وتطبيقها ، أقرر أنهم في منهجهم كغيرهم من المذاهب الأخرى ، فقد جعلوا الينبوع الصافي لهذه الشريعة هو كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ ، كما قضوا بأن النصوص تتناهى ، ولكن الحوادث ، ولم يقف الإباضية عند جدهم واجتهادهم حتى كانت له قواعد وأصول اعتمدوا عليها في استنباط الأحكام ومن هنا كان لهم أثر عظيم في الاجتهاد في الفروع الفقهية والتي هم فيها يتلاقون مع أهل السنة في أغلبها بل جميعا إلا القليل النادر ، والذي لا يصل حصره إلى أكثر من عشرة مواضع .

فبالرجوع إلى فقه الإباضية تجد أن المسائل التي خالفوا فيها الحنفية مثلا اتفقوا فيها مع الشافعية أو المالكية أو الظاهرية . وما خلفوا فيه مذهبا وافقوا فيه الآخر .

أما المسائل النادرة التي خالفوا فيها جملة أهل السنة تجد فيها اما رأيا واحدا عندهم ، أو رأيين أحدهما خاص بها والآخر يتفق مع مذهب من مذاهب أهل السنة .

وإذا كان الإباضيــة لهم رأيهم المنفرد في بعض الحـوادث التي يمكن حصرها فإنك تجد الاختلاف بين مذاهب أهل السنـة أنفسهم في كثير من الحـوادث والفروع التي لا يمكن حصرها ، بـل يتعسر الوصول إلى مسألة محل اتفاق بينهم ، فـالاختلاف بين المذاهب أمر لا بد منه لاقامة الاجتهـاد واستخـدام العقـول وتبـاين الأفهام ، وكثيرا ما يحدث الاختلاف في داخل المذهب الواحد حتى وصل عدد الآراء في بعض المذاهب إلى خمسة آراء .

وإذا كان هذا الاختلاف الفقهي فيما جـد من حوادث ومسـائل في زمن المجتهد فإنما هو ناتج عن دراسة مستفيضة وعميقة لمعاني الكتـاب والسنـة ، ومـا ثبت من اجماع ومـا يستنبـط منهـا من أقيسـة ولم يكن افتراقـا بـل اختلافا في وجهة النظر ، وكان يستعين كل فقيه بأقوى ما توصل إليـه من معان وأحكام .

وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يسره اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم في الفروع ، ويقول : « مـا أحب أن أصحـاب رسـول الله صلى الله علين وسلم لا يختلفون ، لأنـه لو كان قولا واحـدا لكان النـاس في ضيق ، وانهم أئمة يقتدى بهم فلو أخـذ رجل بقول أحـدهم لكان سنـة »[24] . ومع أن الاختلاف في الفروع الفقهية كانت له أسبـاب وعوامل أشـار إليهـا الكثير ، فانى أوجزها فيما يلي :

أسباب اختلاف الفقهاء في الفروع الفقهية :

ترجـع كثرة الفروع الفقهيـة فيهـا بين الفقهـاء والتي أدت إلى تكـوين

---

(24) الاعتصام للشاطبي ج 3 ص ٦٦ .

المدارس الفقهية إلى عوامل كثيرة أجملها فيما يلي :

(1) كان تفرق علماء الصحابة رضوان الله عليهم في الأمصار المختلفة مع تفاوتهم في العلم والرواية سببا في اختلاف الفتوى ، كما كان تباعد المسافات بين الأمصار عائقا للتقارب بين وجهات النظر ، فتكونت المدارس المختلفة من الفقهاء التابعين ، وكان على رأس كل بلد مدرسة لها فتاويها وآرائها الخاصة بها ، فوجدت بذلك مدارس في مكة والمدينة والكوفة والبصرة والشام ومصر والمغرب وصار لكل منها أتباع مجتهدون .

(2) انقسام المجتهدين في الفقه الإسلامي إلى فريقين ، فريق اعتمد في منهجه على النصوص وغلبت عليه التسمية بأهل الحديث ، وفريق اعتمد على الرأي مستضيئا بالنصوص فغلبت عليه التسمية بأهل الرأي[25] .

(3) تنازع المسلمين حول الخلافة ومن الأحق بها ، وانقسامهم إلى خوارج وشيعة وجمهور وهذا العامل قد ساعد على قيام المدارس الفقهية بطريق غير مباشر حيث انه ترتب عليه تصدع وحدة الأمة الإسلامية بعد الفتنة الكبرى ، فبعد أن كانت الأمة الإسلامية متحدة سياسيا وتشريعيا ولها عاصمة واحدة وهي المدينة المنورة تصدر فيها جميع الأحكام السياسية والدينية ، مما جعلها المدرسة الوحيدة التي تزخر بالصحابة والحفاظ ـ أصبح العلماء بعد الفتنة متفرقين في الأمصار ، يتبادلون الخلاف والجدل ، مما أدى إلى تكوين هذه المدارس وكان من الطبيعي أن يكون لكل مدرسة موطن نشأت فيه وطوائف تتبعها وتعتز بمنهجها .

(4) شيوع رواية الحديث بعد أن كانوا يتحرجون منها مخافة الكذب على رسول الله ﷺ ، فظهر الافتراء في وضع أحاديث بسبب عدم تدوين

---

(25) الملل والنحل للشهرستاني ج 2 ص 11 .

السنة والاعتماد على الذاكرة ، وصعوبة حصر ما صدر من السنة في حياته ﷺ .

كل ذلك أعطى الفرصة لأعداء الله أن يلقوا بأقوال وينسبوها افتراء وكذبا إلى رسول الله ﷺ وشجع على ذلك الخلاف السياسي ، والتعصب المذهبي ، والتبعية للحكام والعداوة الدينية .

وكان نتيجة لذلك المجتهدين في التثبت مما يرد إليهم من الأحاديث ، فشرط بعضهم شروطا لقبول الحديث ، وتباينت وجهات النظر في ذلك رجاء الوصول إلى الصواب[26] .

(5) اختلاف أحوال الأمصار الاجتماعية والاقتصادية كان سببا في اختلاف المسائل المعروضة على المجتهدين ، فاختلفت الفتوى في المسائل والمباديء وتكونت المدارس الفقهية[27] .

(6) ورود المتشابه في القرآن الكريم ، وقد كان وروده سببا في اختلاف العلماء في مواضع المتشابهات وحاول كثيرون من ذوي الأفهام تأويله والوصول إلى إدراك المراد منه فاختلفوا في التأويل اختلافا مبينا ، ومن العلماء من توقف خشية الخطأ في الحكم ، قال تعالى ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ، هن أم الكتاب ، وآخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون في العلم ، يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الألباب ﴾[28] .

---

(26) المذاهب لأبي زهرة ص 26 .

(27) تاريخ الفقه الإسلامي للشيخ أنيس ج 2 ص 8 والمذاهب لأبي زهرة ص 20 .

(28) سورة آل عمران (آية 7) .

ويقـع تحت هـذا الاختـلاف العـارض من وجهـة اشتراك الألفـاظ للتأويلات الكثيرة ، والخلاف العارض من جهة الحقيقة والمجاز ، والأفراد والتركيب ، والعمـوم والخصـوص ، والنـاسـخ والمنسـوخ ، والاباحـة والتوسيع[29] .

فبهذا ثبت ورود المتشابه في القرآن الكريم ليختبر الله سبحانـه وتعالى قوة الايمان في المؤمنين وليدركوا أن خاتمة الشرائع صالحة لكل زمان ومكان ، ولكل ما يحدث ويجد من فكر وأعمال تخطر ببال البشر وتدور بين الحظر والاباحة .

قال (ابن رجب الحنبلي)[30] : « اختلاف العلماء في المسائل التحليلية والتحريمية لأسباب : منها أنه قد يكون النص عليها خفيا لم ينقله إلا قليل من الناس ، فلم يبلغ جميع حملة العلم ، ومنها أنه قد ينقل فيها نصان ، أحدهما بالتحليل والآخر بالتحريم ، فيبلغ طائفة أحد النصين دون الآخر فيتمسكون بما بلغهم ، أو يبلغ النصان معا من لا يبلغه التاريخ ، فيقف لعدم معرفته بالناسخ ، ومنها ما ليس فيه نص صريح كأن يؤخذ من أو مفهوم أو قياس ، فتختلف أفهام العلماء في حمل الأمر على الوجوب أو الندب وفي حمل النهى على التحريم أو التنزيه وأسباب الاختلاف أكثر مما ذكرنا »[31] .

وبعد فإذا كان هناك خلاف ثابت في كثير من الفروع بين

---

(29) معارج الأمال ج 1 ص 14 ـ 21 .

(30) ابن رجب : هو أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي المتوفى سنة 795 هـ . القواعد لابن رجب .

(31) القواعد لابن رجب ص 15 .

مذاهب أهل السنة فإنه ينـدر ويقل بين الإبـاضيـة وبينهم ، بل المسائل التي انفرد بها الإباضية وكانت لهم فيها حجتهم المستقلـة أحصرها فيما يأتي :

أولا : مسألة المسح على الخفين .

ثانيا : مسألة رفع الأيدي في تكبيرة الاحرام .

ثالثا : حكم من أصبح جنبا في رمضان .

رابعا : طعام أهل الكتاب (الحربيين) .

خامسا : تحريم نكاح الصبي والصبية .

سادسا : تحريم الجمع بين بنـات العم خوف القطيعـة ، وهو للشيخ أطفيش الإباضي خلافا للثابت عندهم .

سابعا : حق أولاد الإبن في الميراث مع الأولاد بالوصية الواجبة .

ثامنا : المدبر حر من تاريخ التدبير .

تاسعا : تحريم التبغ على أنه من الخبائث .

وهذه المسائل لكل مذهب فيها آراء ومنها التحريم .

وتتميا للفائدة في هذا المقام أذكر مسـألـة من المسـائل المختلف فيهـا بين الإباضية وأهل السنة وهي مسألة الوصية للأقربين ، وذلك لما لها من أهميـة خاصة في تقريرها .

الوصية للأقربين

تمهيد :

الوصية للأقربين :

من الثابت المنصوص عليه أن إبن الإبن مع الإبن لا نصيب له في تركة جده وجدته باجماع الفقهاء حيث لا فرض له مع وجود أعمامه ، وهذا كان له الأثر فيما يشهده المجتمع بين حين وآخر من وفاة شخص في حياة والديه وقد ترك ذرية ضعافا لا عائل لهم ولا سائل خاصة وأن شرع الله سبحانه وتعالى بين الميراث بيانا شافيا ، فلم يجعل لذوى العقول التصرف فيه لما له من أهمية خاصة في العلاقات الانسانية والاجتماعية .

فبين الله سبحانه وتعالى لهم سهام مقدرة بالنص القرآني المفصل ، والكثير من النصوص النبوية المطهرة التي لا تجعل مجالا للشك أو الريبة .

فقدر الفروض وحصرها في النصف ، والربع والثمن ، والثلثين ، والثلث ، والسدس ، كما نص على أصحاب الفروض الذين لهم الحق في تركة المتوفى من الذكور والاناث وعددهم أثنا عشرة .

فالذكر أربعة: (1) الأب . (2) الجد. (3) الأخ لأم. (4) الزوج.

والاناث ثمان: (1) الأم. (2) الجدة . (3) البنت.
(4) بنت الإبن. (5) الأخت الشقيقة. (6)الأخت لأب.
(7) الأخت لأم. (8) الزوجة.

وإذا تأمل القارىء آيات الكتاب أدرك أن الله سبحانه قدر علم الميراث وأوضحه وضوح النهار بشمسه ، فلم يترك تقديره إلى أحد . قال تعالى :

﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق أثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهم السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له أخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيها أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما ﴾ .

﴿ ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم ﴾[32] .

ثم قال سبحانه ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة[33] ان امروء هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو

(32) الآيتان 11 ، 12 من سورة النساء .

(33) الكلالة : مأخوذة من الاكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ، وفسرها للعلماء بمن يموت وليس له ولد ، ولا والد ، تفسير ابن كثير ج 1 ص 592 .

يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا أخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم ﴾[34] .

ففي هذه الآيات الكريمة بيان سهام الفرائض ومستحقيها ، وبينت السنة المطهرة حقيقتها وما بقي من أحكام تخصها ، وانعقد الاجماع على كل ما نص عليه ، وثبت باجتهاد الصحابة رضوان الله عليهم بيان الصورة المختلفة في اجتماع الورثة ، وكيفية التقسيم عليهم .

ومع ما ثبت من بيان لأصحاب الفروض فإن الشريعة الغراء تنص على أن الابن المنفرد يحوز جميع التركة ، وكذا الابنان والبنون ، وأولاد الإبن وإن نزل إن أنفردوا ، كأولاد الصلب يستغرقون جميع التركة ، فلو اجتمع أولاد الصلب وأولاد الإبن ، وكان من أولاد الصلب ذكر حجب أولاد الإبن بالاجماع ، وكذلك إذا أحاط أصحاب الفروض بجميع التركة حرم أبناء الإبن[35] .

فبمقتضى توزيع التركات يحرم أولاد الإبن من مال كانوا يستحقونه لو أراد أباهم إلى ما بعد وفاة والده ولكن قدرة الله التي اشتملت على المواعظ والعبر جعلت هؤلاء لا فرض لهم مع أعمامهم ، وبهذا التوزيع الذي عليه الكثير من أهل العلم حرم أبناء الإبن وجعلهم يعيشون في حياة بائسة لا

---

(34) الآية الأخيرة من سورة النساء .

(35) المبسوط ج 6 ص 156 ، وفتح القدير ج 3 ص 154 ، وبداية المجتهد ج 2 ص 405 ، والمهذب ج 3 ص 27 ، والمغنى لابن قدامة ج 5 ص 245 ، والبحر الزخار ج 6 ص 241 ، والمحلى لابن حزم ج 10 ص 345 ، ومختصر الخصال ص 209 ، والنبع الفائض في أصول الفرائض ص 39 .

ذنب لهم فيها ، ولكن لحقتهم مصائب الدهر بسبب موت أبيهم الذي لو أبقته يد القدر إلى ما بعد وفاة جدهم لكانوا في سعة من العيش ورغد في الحياة .

ومع هذا الاتجاه إلى الحرمان من الكثير قيض الله سبحانه وتعالى من أهل العلم والبصيرة من يجد لهم مخرجا في كتابه العظيم الذي لم يفرط بحق في شيء ، وسنة سيد المرسلين وخاتم النبيين التي أكدت منعتهم وعزتهم حتى نصوا على أنهم لا يقلون قدرا عن أعمامهم في ميراث جدهم ، فنادوا بالوصية لهم وأوجبوها على الوالدين لأولاد أبنائهما المتوفين في حياتهما وجعلوا حرمة منعها كحرمة تضييع أصحاب الفروض .

ومن هذا الفهم العميق والاتجاه الجلل الذي أزال الكثير من الخلل في توزيع التركات كانت الوصية الواجبة التي أرى أنها مفخرة الفقه الإباضي وسر ادراكه لمعنى الكتاب والسنة وقداسة هذا التشريع وما فيه من اللطف والرحمة بهؤلاء الأيتام وتدارك ما فاتهم بموت أبيهم .

أهم مؤلفات الإباضية

بعد عرض أهم الجوانب العلمية عند مدرسة الإباضية والإشارة إلى مصادرها يتحقق للقراء أن المذهب الإباضي غني بالمؤلفات الكثيرة ، والتي منها ما هو كبير الحجم والتي يصل بعضها أحيانا إلى ما يزيد عن السبعين جزءا ، ومنها ما هو صغير الحجم قليل الأجزاء ، وليس صغر الحجم دليلا على اختصار علومه ، وإنما لاقتصاره على بحث جزئية معينة في المذهب .

ولا أستطيع في هذا المقام أن أشير إلى ما دون من هذه المؤلفات لدى

كتاب الإباضية ، بل لا أستطيع أن أشير إلى ما رأيته فقط من خزائن مملوءة بمؤلفات العلماء من إباضية سلطنة عمان ، فماذا عن مؤلفات إباضية المغرب العربي بليبيا والجزائر وتونس والتي عرفت مصر عن طريقهم المذهب الإباضي .

فكل من أشار لهذا المذهب من علمائنا رجال الأزهر الشريف يذكر أن مراجعهم كتاب شرح النيل وشفاء العليل ، وكتاب الإيضاح للشماخي ، وهما لعالمين من علماء المغرب العربي ، بل لو سمع مني أي عالم من علمائنا الأفاضل ذكر المذهب لقال إن مراجعه نادرة ، وربما لا يكون لهم مرجع سوى شرح النيل ، ومع هذا فإن للجميع عذرهم وذلك من ناحيتين :

الناحية الأولى :

ان شرح النيل مؤلفه رحمه الله كان في أوائل هذا القرن الذي نعيشه ، وقد حضر إلى مصر وأقام بها حتى وفاته☆ ، وإلى الآن يعتبر أحفاده من أبنائها ، فحافظوا على هذا الكتاب حتى طبع في مصر ، وأخذ للدراسة في الأزهر للباحثين ، فلم يكن يوجد سواه ، بل أستطيع أن أقول انه قبل حضور الشيخ أطفيش إلى القاهرة كان لا يوجد لهم مرجع واحد متيسر للاطلاع والدراسة .

الناحية الثانية :

إن أهل المذهب في العصور السابقة ربما كان لهم بعض التحفظ على ما يؤلفونه فلا يطلع عليه سوى أهل المذهب ، ومعظم كتب التاريخ الإباضي تشير إلى كثرة الفتن في الأقطار التي يعيشون فيها ، والتي كثيرا ما كانت تؤدي إلى الحرص الشديد على اختفاء هذه المؤلفات ، وقد أدى هذا

الحرص إلى ضياع الكثير منها ، وربما كانوا يحفظونها في بطون الجبال والجحور فتأكل بعضها الأرضة ، لهذا نجد الكثير من المراجع ناقصا مجلدا أو أكثر من وسطه ، وربما لا يبقى من المراجع الضخمة سوى مجلد واحد أو ما يشير إليه ، وسواء أكان المعروف لدى علماء الأزهر مرجعا أم أكثر فإن المذهب الإباضي معلوم لدى كافة المسلمين منذ نشأته وهو مشار إليه لدى كتاب الفرق الإسلامية ، ولكن على دعاة أهل العلم الوقوف على منهج أي مدرسة من المدارس وذلك من مصادرها الأصلية .

وإذا كان لا نعلم في وقت سابق عن حجم الثروة الضخمة التي تركها علماء الإباضية فقد حان الوقت الذي تخرج فيه هذه المؤلفات من هذا الحصار لتطوف الدنيا من مشرقها إلى مغربها ، ويرجع الفضل في هذا الانتشار إلى العصر الذهبي الذي تعيشه الآن سلطنة عمان بقيادة زعيمها المفدى السلطان قابوس بن سعيد ، والذي له الفضل العظيم في النداء الدائم بجمع هذا التراث الضخم للقيام على حفظه وطبعه حتى تيسر له ما نادى به .

وقد وفى وأنشأ وزارة التراث القومي بقيادة صاحب السمو السيد فيصل بن علي وزير التراث القومي والثقافة ، الذي شمر عن ساعديه ، وتغمره السعادة كلما حصل على مؤلف ليقوم بطبعه ونشره في كافة بلدان المعمورة ، والذي يطوف بالوكالة يلمس هذا القدر العظيم لهذا الوزير والرجال الذين يعملون معه في احياء هذا التراث الضخم ، فكم تأخذك هالة الفخر بسهر هؤلاء الرجال على هذا الانجاز المعجز في هذه الفترة الوجيزة ، والتي تدل على معجزة حقيقية في قراءة هذه المخطوطات التي يتعثر النظر في قراءتها ثم طبعها بهذا الشكل الحسن فجزاهم الله خير الجزاء .

وإن كنت في كلامي هذا أشيد بدور هؤلاء الذين تولوا حفظ

التراث ، فليس من فراغ ، ولكن كل هـذا لمسته خـلال زيـارتي لسلطنـة عمان في نهاية عام 1984 م من أجل الوقوف على مراجع المذهب بدعوة من سماحة مفتي عام سلطنة عمان « الشيخ أحمد بن حمد الخليلي » .

وقد اطلعت على مخطوطات متهالكة ذات رائحة شديدة من سوء التخزين ، وربما لا تستقر النفس بالاقتراب منها ، وأخرى بخط رموز يصعب على غير المتابع لها قراءتها وفكها[36] .

كما سمعت من العاملين فيها أن الحصول على المخطوط من حصنه صعب للغاية ، وكثيرا ما يحصلون على جزء من مخطوط في وقت ثم يحصلون على بعضه أو باقيه بعد عناء في فترة زمنية كبيرة ، وربما يحصلون عليه من مكتبات عالمية في أوربا وغيرها ، فمثلا علمت أن هناك كتابا اسمه (كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة) ، ففرحت حيث أنه المصدر التاريخي الوحيد الذي يدلني على أثر هذه المدرسة ولكن سرعان ما تبدد هذا الفرح ، فالوكالة لم تحصل إلا على غلاف أحد المجلدات فقط ، وتشاء الظروف أثناء استغراقي في البحث أن أصل إلى أن هذا المخطوط توجد منه نسخة بمكتبة كلية الدراسات العليا بجامعة بغداد ، وهذا كله يدل على أن جمع مؤلفات المدرسة الإباضية ليس بالأمر الهين .

كما ذهلت لما رأيت الوكالة التي استقبلني روادها أعظم استقبال وأتاحوا لي أن أجول فيها وأحصل منها على ما شئت من مراجع منسقة جميلة

---

(36) يقول الشيخ سالم بن حمود السيابي قاضي محكمة مسقط . أعلم أن أغلب علماء عمان أعظم عللهم الفقر وأكبر مؤخر لهم عن التأليف العسر ، ولم تكن لهم دولة غنية بمعنى الكلمة ، فلذلك ترى مؤلفاتهم في الزوايا تلعب بها حشرات الأرض . مقدمة فصول الأصول ص 7 .

حسنة الطبع مجلدة أفخم التجليد ، كثيرة العدد .

وبتصفح هذه المؤلفات الضخمة كثيرة المجلدات ، أرى أن علماء هذه المدرسة لا يعرفون التخصص في العلوم الاسلامية ، فلا يقتصرون في بحثهم على علم دون علم إلى يومنا هذا فنجد المرجع الواحد جامعا شاملا كل العلوم ، فلم يترك بابا أو مسألة إلا وطاف فيها وأعطاها حقها من البحث والتحقيق .

فالغاية العظمى من هذه المراجع متقاربة في تنظيمها وتبويبها ، فنجد أنها تبدأ في أول أجزائها ببيان فضل العلم والحث عليه ، ثم السيرة العطرة لسيد الخلق سيدنا محمد ﷺ وصحابته ، ثم الجانب الأخلاقي ، ثم الجانب العقائدي ، ثم أصول الفقه ، ثم الفقه بجميع أبوابه وفروعه ، وأحيانا أجد بعض هذه المؤلفات مدونا فيها علم أصول الفقه قبل علم التوحيد .

كما أرى أن أصحاب هذه المؤلفات كانت لهم القدرة القائمة في استخراج الأحكام الدالة على جميع أصناف العلم ، فلم يتركوا مسألة واحدة إلا ووضحوها وأصلوها .

فالناظر في هذه المراجع يدهش حينما يرى هذا الجهد الذي بذلوه في تصنيف هذه المراجع وضخامتها ، فمثلا تجد المسألة الواحدة الفرعية في بحثها وكتابتها أحيانا تقع في مجلد ضخم بل في بعض المراجع تشمل أكثر من مجلد ، فبالتجوال في بعض هذه المراجع أجد أنني وصلت في النظر إلى الجزء العشرين منه ولم ينته بعد من الطهارة أو الصلاة ، وذلك كقاموس الشريعة ومعارج الآمال .

ولم يكتف علماء هذه المدرسة بالتأليف والتدوين بطريق

الكلام والبسط فيه ، بل الكثرة منهم كانت لهم القدرة الفائقة على صياغة ما كتب بطريق الشعر على أحد بحوره ، وكانوا في شعرهم لا يقتصرون على الجمل الاجمالية كالمتون بل كانوا ينشدون المسألة انشادا مطولا بحيث تصلح أن تكون مصدرا يعتمد عليه في استخراج المسألة بأدلتها .

فمثلا علم المواريث أجد فيه أرجوزة قيمة أسماها مؤلفها[37] (كلمة صدق في تأييد الحق) وقد اقتبسها من موضوع المواريث في كتاب النيل وشفاء العليل ، وهي تقع فيما يزيد على ثلاثمائة وخمسة وأربعين بيتا .

وكذلك أرجوزة مطولة في الاجتهاد وشروطه وهي تقع فيما يزيد على أربعة وسبعين بيتا ، وسماها مؤلفها (غاية الارشاد إلى شروط الاجتهاد)[38] وهذه الأرجوزة كغيرها غنية في منهجها العلمي الذي يؤدي

---

(37) كلمة صدق في تأييد الحق للعالم عبد الله بن غابش النوفلي المتوفى سنة ألف وثلاثمائة وتسع وثلاثين هجرية ، وهذه الأرجوزة مطبوعة عام 1981 م ، وتقع في 46 صفحة من القطع الصغيرة .

(38) أرجوزة غاية الارشاد إلى شروط الأجتهاد ، تقع بآخر كتيب المنتخب من السنة لمؤلفها سفيان بن محمد بن عبد الله الراشدي رحمه الله ، والتي تقع على غرار الأربعين النووية الشهيرة وتزيد على الثانين حديثا منتخبة كلها من كتب الصحاح ، وقام بطبعها ولده يحي بن سفيان مدير معهد الدراسات الاسلامية بسلطنة عمان سنة 1396 هـ .

ملحوظة :(1)ننشر هنا بعض ما أوضحه الباحث عن وصية الأقربين لطول البحث .

(2)مؤلف شرح النيل هو محمد بن يوسف أطفيش قطب الأئمة وليس إبراهيم أطفيش (نزيل مصر) كما توهم الباحث .

الغرض لمن اطلع على فنها .

وغير هـذا كثير من المطولات الشعريـة التي شملت جميع صنوف العلم .

ومن هـذا الميـدان الفسيـح والجمـع الكبير للثروة الضخمـة التي تركهـا علمـاء الإباضية أرى أن بيان المزيد عنها يحتاج إلى زيارة الوكالـة بوزارة التراث .

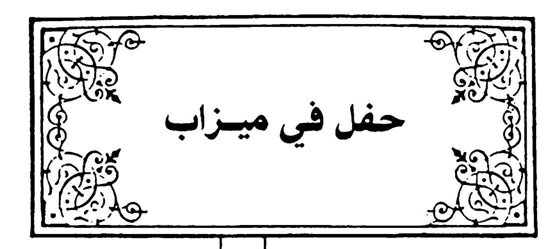
والسلام عليكم ورحمة الله .

د : ابراهيم عبد العزيز بدوى

مدرس الفقه المقارن بجامعة الأزهر

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين

بالقاهرة



... عندما تتبارى المدن والنـواحي الجزائـرية في ميـدان العلم والأدب وحلبة العـروبـة والإسـلام ، ومضمار الوفاء لسدنة هذه الثوابت ، ستقف ميزاب في الطليعة بدون منازع .

حفـل في ميـزاب(1)

بقلم : د/أبو القاسم سعد الله
جامعة الجزائر(1)

اذا ذاكر العلم في بلادنا فان الذهن ينصرف الى مراكز معينة هي تيهرت وتلمسان وبجاية وقسنطينة ، ثم تقدمت عجلة الزمن فإذا بمراكز أخرى تظهر على الخريطة هي زواوة ومعسكر ومازونة ومدينة الجزائر ، وبعد الاحتلال الفرنسي انطفأت هذه الشموع ولم يبق منها الا بصيص يخفق هنا وهناك رغم الرياح العاتية ، في تلمسان وقبنطينة وبسكرة . وقد أضيف اليها وبقوة ميزاب .

كان المرحوم محمد علي دبوز يهدي إلى كتبه عن النهضة الجزائرية وأعلام الاصلاح . وهي كتب تمثل بحق مجهودا فرديا ننوه به العصبة

---

(1)الدكتور أبو القاسم سعد الله من أبرز المثقفين الجزائريين المعاصرين . أستاذ جامعي واسع الثقافة ، ألف في العديد من الاهتمامات ، التاريخ ، الأدب ، الشعر ، تحقيق التراث وهو عضو المجمع العلمي العربي بالقاهرة .

(1) نقلا عن الشعب ، 1990/6/7 .

أولو القوة وكنت أتحرج من مجاراته في الأطروحة العامة التي يبني عليها مؤلفاته وهي التاريخ للنهضة الجزائرية بتطبيق نظرية شمال وجنوب ، وقد كان – رحمه الله – يكرر ذلك فيذكر نماذج قليلة مما يسميه «الشمال» ثم يركز ويطيل التركيز على النماذج «الجنوبية» ، وهو يعني بالشمال بعض مراكز العلم وبعض الشخصيات في المدن الساحلية وما جاورها . ويعني بالجنوب بلاد ميزاب بالذات ، فهو يؤرخ لحياة هذه المنطقة العلمية ويصف رجالها ويتحدث عن تكوينهم وأسفارهم في سبيل العلم والتحصيل وجهادهم من أجل العربية والإسلام والإصلاح .

قلت كنت متحرجا من مجاراته في ذلك لأنني أؤمن بوحدة الوطن واقف ضد تناول حياة بلادنا من منطق الجهوية أو المذهبية . فلم أتناول كتب المرحوم دبوز بالمدح أو القدح ، وأن كنت في نفسي أكبر فيه الجهد والتوثيق والغيرة الشديدة على تراث ميزاب ، وكنت أقول لعله يبالغ في ذلك ولعله ينطلق من منطلق التي عرفتها المنطقة خلال حوالي قرن ، عذرته فيما ذهب إليه وازداد جهده مكانة في نفسي .

كان ذلك حين اتيحت لي فرصة حضور حفلة تأبين المرحوم الشيخ ابراهيم بين يحي القرادي في مدينة العطف يوم الثاني من شهر مايو ، وكان سفري إلى هناك صدفة ، فلم أكن مخططا للذهاب إلى العطف ولم أسمع بالحفل إلا لمدة قصيرة قبل سفري ، بالعكس كانت عندي مشاريع أخرى أحاول التوفيق فيما بينها لحضورها أو لحضور جزء منها على الأقل ، وهي ندوة العمودي بسوف . وندوة محمد العيد في بسكرة ، وندوة التعريب في قسنطينة وندوات خراطة .

وقالمة وسطيف وندوة السنوسي في تلمسان ، ثم ندوة المستقبل الاسلامي بالعاصمة ، فإذا بي أجد نفسي معتذراً عن حضور الجميع (عدا ندوة المستقبل الاسلامي) وحاملا حقيبتي في اتجاه وادي ميزاب ، لقد كان ذلك من حسن الصدف طبعا ، وللقدر تقديرات ما علينا إلا أن نستسلم لها راضين مطمئنين .

دع الأيام تفعل ما تشاء

وطب نفسا إذا حكم القضاء

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي ادخل فيها ميزاب ، فقد زرتها زيارة خاطفة بعائلتي آخر عام 1970 ، فكنت عندئذ سائحا يلتقط المعرفة بالعين المجردة ، وكان حظ العطف وبونورة ومليكة وبريان مجرد العبور ، أما بني يزقن فقد تجولت فيها وصعدت صومعتها مررت بشوارعها الضيقة ، وكان حظ غرادية المبيت في أحد فنادقها «فندق السلام» ، أما القرارة فلم يسعدني الحظ بالتعرف عليها ولو بالعين المجردة ، رغم انها موطن معهد الحياة ومبعث الحركة العلمية المعاصرة .

أما زيارتي هذه المرة ، فقد كانت تختلف تماما عن سابقتها . كانت زيارة علمية واخوانية لا سياحية ، منذ المطار وجدنا في استقبالنا نخبة من المثقفين يتقدمهم زميلنا الدكتور محمد ناصر : وقضينا المساء في منازل بعض المثقفين أيضا ، جلسة هنا حول الشاي ، وجلسة هناك حول العشاء ، ولكن الحديث كان دائما عن حالة الجزائر الراهنة ، وعن النهضة العلمية في ميزاب . وعن بعض الكتب التراثية ، وكان شيوخ العلم وبعض النواب والمدرسين والطلاب حاضرين ، بعضهم جاء من بعيد للمناسبة ، أما الآخرون

فكانوا مقيمين .

في صباح اليوم التالي (3 مايو) انطلقنا إلى الجامع العتيق بالعطف ، كان الطريق غاصا بالضيوف الذين جاؤوا من كل حدب وصوب ، وكان اللباس الأبيض واللحية والعراقية هي العلامات المميزة للجموع المتراصة ، اكتظ الجامع على اتساعه وكان في مقدمته ، جهة المحراب ، جمع من الشيوخ الأجلاء يتقدمهم الشيخ الاستاذ عدون ، رئيس مجلس عمي سعيد ، وهو عند الميزابيين مجلس الحل والعقد أو الهيئة العليا التي تعنى بالشؤون الدينية ، بالاضافة الى الضيوف القرباء والبعداء ، وقد عودنا بعض المنشطين للحياة الثقافية في الجزائر عقد مثل هذه اللقاءات في قاعات من نوع آخر ، فيها المنصة وفيها الأضواء الكاشفة والخافتة وفيها الكراسي الوثيرة والممرات المستقيمة أما حفلنا هذا فقد جرى في الجامع الذي شيد في الاسلام على التقوى والجهاد والعلم ، يجلس المسلم فيه متربعا إلى جانب المسلم ، الركبة بالركبة والكتف إلى جانب الكتف ، بدون منصة ولإكراسي ولا ممرات ، هكذا الجامع إذن ، فهو الموحد للصفوف ، وهو الاشعاع في العلم وهو التوجه بكل ذلك إلى الله .

افتتح الحفل بآيات بينات من الذكر الحكيم ، ثم تعاقب المتكلمون ، فكان أولهم هو الشيخ عدون ، وتنوعت الكلمات والتدخلات ، فكانت الأناشيد والمدائح الدينية والوطنية «ومنها ما نظمه المرحوم الشيخ القرادي نفسه» تترنم بها براعم من الفتيان وكانت المحاضرات الدسمة التي يحلل فيها المحاضر الوضع الاجتماعي والسياسي والأدبي لميزاب على عهد المرحوم القرادي .

وكانت الكلمات الحافلة بالذكريات العطرة عن الشيخ الفقيد ،

وغالبا ما كان يتخلل هذه الكلمات الذكرياتية الاجهاش بالبكاء ، ومن لا تتندى عيناه بالدموع وهو يستمع إلى صديق مخلص للفقيد يقص موافقه الوطنية والانسانية بعبارات مليئة بالحزن المبرح والألم الدفين ؟ أن الموت أقوى قاهر للإنسان وأكبر كاشف لضعفه ، أننا نقبل الموت لأنه قضاء وقدر وليس عن رضى واختيار منًا ، ذلك أنه يسلبنا أعز الأكباد والأباء والأصدقاء .

تبارى المتكلمون طيلة الصباح والمساء ، فالشعر يجعلك تتخيل أنك في سوق عكاظ والنثر يذكرك بعهد الجاحظ والمبرد وأبي علي القالي ، لو بحثنا عن سوق نافقة للأدب العربي في الجزائر المعاصرة لوجدناها في ميزاب ،. فالقوم لايزالون على عهدهم بالشعر الجميل والنثر الجزيل ، يحسون بوقع الكلمات وموسيقى النبرات وجلال المقاطع ، لقد جعلت منهم الصحراء الصافية ،. والمعاهد العلمية التي تخرجوا منها وحافظوا عليها بالنواجذ ، مثل معهد الحياة ، والموروث الحضاري الضخم من عهد الدولة الرستمية ، مرورا بمعاهد العلم في المشرق العربي والزيتونة بتونس قلت جعلت منهم بحق «بلابل» الأدب العربي في الجزائر ، ينشدونه عن حب وسليقة ، ويكتبونه عن رغبة وصدق ، ويحفظونه عن فخر واعتزاز ، لقد جعلتني الحركة البربرية - الفرنكفونيّة - الشيوعية التي ظهرت في زواوة أضع يدي على قلبي خوفاً على مصير الكلمة العربية القرآنية الجميلة في وطننا ، ولكن ما رأيته وأحسست به في ميزاب جعلني مطمئن البال متفائلا

بالمستقبل السعيد لهذا الوطن العزيز .

ما يلفت نظرك في هذا الحفل أن عددا من المتكلمين كانو ممثلين لجمعيات ثقافية وأدبية وعلمية ، وهي جمعيات تحمل عناوين في غاية الجمال والدلالة ، هي جمعيات انشئت لخدمة الثقافة العربية والاسلامية ولجمع الشمل وتقريب الأذهان وإطلاق الألسنة بالأدب الرفيع والأخلاق الكريمة ، والتغني بالوطن والعروبة والاسلام ، وإليك نماذج من هذه الجمعيات التي كانت حاضرة ممثلة في المتكلمين باسمها ، أي أولئك الذين ألقوا كلمات في تكريم وتأبين المرحوم القرادي مشاركة لأخوانهم في المصاب الجلل : جمعية الحياة ، جمعية النهضة ، جمعية التراث ، جمعية الاصلاح ، جمعية الفتح ، جمعية الثبات ، جمعية الوفاق ، جمعية النور ، ثم الجمعية الجابرية ، ومجموعة الفن والأدب الاسلامي ، الخ ألا يدل هذا على ذوق سليم ؟ إلا يدل على الالتزام بالانتماء العربي الاسلامي ؟ الا يعطي برنامج عمل كامل للحياة المدنية التي سبقت بها ميزاب اخواتها الجزائريات ؟ بالنسبة لي فقد فهمت أن الجزائر بخير ما دام فيها مثل هذه القلعة الحصينة الملتزمة بثوابت التاريخ والأدب والدين والوطنية .

وهناك نقطة أخرى تجعلك متفائلا أيضًا ، وهي أن ميزاب ما تزال محافظة على تقاليد اجتماعية بينما نفس هذه التقاليد قد أخذت تتلاشى في أماكن أخرى تاركة مكانها لواردات غريبة ، يبدو أنها غير منسجمة مع عقلية شعبنا ، فأهل ميزاب الذين هم جزء لا يتجزء من الشعب الجزائري ، مترابطون ترابطا اجتماعيا وثقافيا بحيث

يصدق عليهم الحديث الشريف «كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا» . فلكل قرية «عزابة» أو جماعة تسهر على مصالحها وتنظم شؤونها وتقرر حتى في المسائل الحساسة أو الشائكة أو الأخلاقية ، ومن ثمة فمجتمع كل قرية يعرف أنه مصان ومراقب ومترابط عن طريق هذه الحلقة المتينة ، ومن ثمة أيضا جاء الولاء اليها «أي العزابة» سنة حميدة يلتزم بها الجميع وتمثل احترام الصغير للكبير في الحس والمعنى .

وبالاضافة الى هذه العزابة هناك أيضا مجلس أعلى يحتكم اليه الناس يسمونه «مجلس عمي سعيد» ، وهو كما سبق هيئة عليا ذات سلطة معنوية كبيرة ، ورئيسه الحالي هو الشيخ عدون . ولا يتولاه الا من كان يتمتع بقوة علمية وأخلاقية عالية ، أن هذه المؤسسات التقليدية ، بالاضافة الى روح التعاون والترابط عن طريق العشيرة ، تجعل مجتمع ميزاب كخلية النحل نشاطا وتماسكا وتفاعلا ، كما تحفظه من الانحلال والذوبان والاستلاب ، ومثل هذه المؤسسات كانت موجودة في إشكال أخرى في أكثر من جهات القطر الجزائري ، ولا سيما في بلاد القبائل حيث نظام الجماعة وسلطة الأمناء ، ولكن هذه المؤسسات أخذت تتلاشى في بلاد القبائل مما جعل الجبل الجديد غير مرتبط بالجيل القديم وجعل مجتمعنا في هذه الأمكان يتطور بطريق الطفرة والارتجال والعشوائية ، وهو ما جعله عرضة أيضا للفراغ والاستلاب بحثا عن بدائل قد تكون مستوردة وقد يكون ضررها أكثر من نفعها .

ومن أبرز ما لاحظته في هذا الصدد ونحن بميزاب ، أن

«الديمقراطية» بالمفهوم الجزائري كانت ممثلة في نظام الجلوس وفي وجبات الطعام وفي نمط اللباس ، فأنت تحس بأن هناك مساواة نشيطه بالمفهوم الاسلامي الاول الكل يجلس حيث انتهى به المجلس ، والكل يأكل من طعام واحد ويتقشف أيضًا ، والكل يلبس لباسا متشابها في القيمة والزي ، وتكاليف الضيوف ، بما فيهم بنو ميزاب أنفسهم ، على العشيرة ، وهكذا كانت وجبة الغداء مثلا بدار «عشيرة آت الخارج» وهي مبنى يتسع لعدد كبير من الزوار وله وسط واسع لم تنضد فيه الموائد بالطريقة المعروفة ولكن يجلس الناس فيه على شكل حلقات من سبعة إلى عشرة أفراد ، ومن لم يجد مكانا في هذا الوسط عليه بالصعود إلى طابق أعلى يخضع لنفس النظام ، والمبنى مجهز لأنشطة ثقافية أخرى أيضا ، فقد رأينا فيه معلقات وصورا وغير ذلك .

ولم تتح لي زيارة الباستين في ميزاب ، ولكني أعرف أنها تمتاز باستثمار أكبر قدر ممكن من الأرض ، رغم أن الأرض بخيلة وصحراوية قاسية أحيانا ، وهم يستنبتون النخيل والفكاهة والبقول والخضروات ، وقد صادف وصولنا بقايا المطر والسحب الحبلى الداكنة ، والبرد غير الفصلي ، فتساءلت في نفسي كيف يمكن أن ينمو النخيل في هذه الطبيعة ؟ ولكني رأيت صباح يوم 90.05.03 مضيفنا يعمل على قطعة أرض مرتفعة تكاد تكون قاحلة واقعة في مثلث بين ثلاثة جبال جرداء ، فكان هو ومن معه يسوون الأرض وينظفونها من الحجارة ، وقد مد الأنابيب للسقي ، ووضع الحواجز الواقية من الانجراف عندما ينهمر السيل من أعالي الجبال ، وقد

أطلعنا على كيفية تفتيت بعض الصخور عن طريق الألغام ، كل ذلك لكي يغرس النخيل ويزرع بين كل نخلة وأرى الخضر والفاكهة ، وقد ذكرتني صعوبة معالجة الأرض بالطريقة الأصعب منها التي يعالج بها أهل سوف غراسة النخيل بالنظام القديم ، أي عندما كانوا يصارعون كثبان الرمال بحثا عن الماء لكي يضعوا النخلة على مشارفه ، وكل من أهل ميزاب وأهل سوف قد عرفوا الصبر والمعاناة من أجل العيش والبقاء .

وعلى ذكر المحافظة أشير إلى أن هناك تواصلا في الأفكار وفي الأجيال في ميزاب ، وقلما نسمع أو نقرأ عن حركة أو شخص شذ عن الرأي العام ، أو أثناء الملتقى الذي نحن بصدده أحسست من كلام بعض الشيوخ أن هناك خوفا من طفرات الشباب نتيجة للمؤثرات التي تعرفها الجزائر في عمومها ، ولذلك جاء خطاب الشيوخ مليئا بالنصح والتحذير والدعاء بأن يحافظ الجيل الجديد على تراث الأجداد ويلتزم بخط سيرهم .

أما عند الحديث عن الماضي فالوصف الذي يذكره المتكلمون عن الجيل السابق وهو وصف الجمود والتطور أو المحافظة والإصلاح ، وغالبًا ما يشار الى معهد الحياة بالقرارة على أنه مصدر الحركة الإصلاحية في ميزاب ، أي النهضة التعليمية التي جاءت بعد غفوة طويلة ، وفي هذا السياق يشار إلى البعثات التعليمية التي توجهت الى تونس وغيرها للمزيد من العلم ، وهكذا يوصف أعداء الاصلاح والتطور بالجامدين والمحافظين الذين حاولوا تأخير القطار بدون جدوى .

وليس هذا مقام التعريف بالمرحوم الشيخ الحاج ابراهيم

القرادي ، فهذه الكلمة كتبناها عن حفلة تأبينه لا عن حياته وجهوده ، وأنا لا أعرف المرحوم ولم أقرأ له من قبل ، ولكن ما سمعناه من محاضرات وخطب وذكريات عنه وما قرأنا عنه مما وزع علينا أثناء الحفل من آثاره[2] ، كل ذلك يجعله في نظرنا شخصية متميزة في عالم الوطنية والأدب والدين ، فقد ولد بالعطف إحدى مدن ميزاب التاريخية ، في 31 مارس 1923 ، وتوفاه الله بالمدينة المنورة في 4 يوليو 1989 أثناء موسم الحج ، وقد ربط كثير من المتكلمين والشعراء بين حياة الفقيد والمكان الذي اختاره الله لوفاته حيث دفن بالبقيع .

فكان هذا الربط زيادة في التأثير على الحاضرين ذلك أن مصير الانسان غير معلوم (وما تدري نفس بأي أرض تموت) وكون روح الفقيد قد فاضت وهو يصلي في المسجد النبوي ، دليلا في نظرهم على قربه من الله وعلامة رضاه عنه ، وكان الشيخ القرادي قد تعلم في عاصمة الجزائر وفي تونس وفي معهد الحياة بالقرارة حيث تتلمذ على الشيخ الشهير إبراهيم بيوض ، ثم أصبح من معلمي هذا المعهد ، وفي مدرسة النهضة بالعطف حيث تولى إدارتها أيضا فترة طويلة ، وأثناء ذلك أثر على التلاميذ الذين بقوا يدينون له بالولاء العلمي .

وبالاضافة إلى هذا الدور لعب الشيخ القرادي أدوارا أخرى في الحياة العامة منها أنه كان من النشيطين في الكشافة الاسلامية ، وفي إدارة دار الفكر الاسلامي بالعاصمة التي كانت تصدر مجلة بنفس الاسم ، ثم في إدارة المطبعة العربية بالعاصمة ، وقد أصبح عضوا في

---

(2) محمد ناصر . الشيخ القرادي . حياته وآثاره . نشر جمعية النهضة . بالعطف 1990 .

جمعيـة القيم ، وأنضمَّ إلى حلقة العزابـة منـذ 1961 ، وترأس عشيرتـه على طريقـة أهل ميزاب ، كما عمـل في جبهـة التحرير الـوطني أيـام الثورة ، وتولى الكتابة في مجلس عمى سعيد .

أما نشاطـه العلمي فيبـدو أن الفقيـد كان منصرفـا ، مثل أغلب علماء الجزائر خلال المائـة سنـة الماضيـة ، الى تكوين الرجـال وأداء الأعمال العائدة بالفائدة على الحياة الثقافية ، أما التـأليف فلم يشتهر به وأنما ترك مقـالات وكتـابـات وعـد الغيورون على تراثـه بجمعهـا ونشرها ، وقد بادر زميلنا الدكتور محمد نـاصر إلى ذلـك اذ أنـه نشر الحلقة الاولى من أعمال الشيخ القرادي ، وقد قسم ما في هـذه الحلقـة إلى عناوين رئيسية هي :

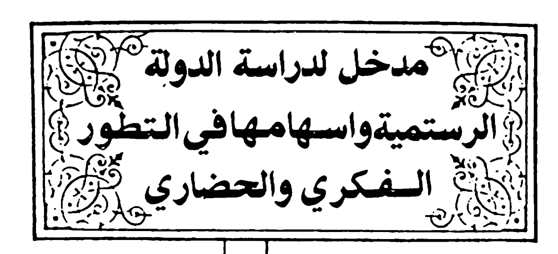
1 - الـدين والاجتماع ، 2 - والثقـافـة ، 3 - والسيـاسـة والتاريخ ، 4 - والأشعار ، 5 - والرسائل .

وتدل هـذه الآثـار على أن الشيخ القرادي كان يعيش واقع بلاده الجزائر وقضـايـا موطنـه الصغير ميزاب ، وكان مهتمـا بشـؤون المجتمـع والاسلام والتعليم والاستشراق .

عندمـا تتبـارى المدن والنواحي الجزائريـة في ميـدان العلم والأدب وحلبـة العروبـة والاسـلام ومضمار الـوفـاء لـدنـة هـذه الثـوابت ، ستقف ميزاب في الطليعـة بـدون منازع ، وقد قلت لأخواننا الميزابيين أن غيركم يقعقع كثيرًا ولكن بدون مـاء ، ويجعجع كثيرا ولكن بـدون طحن ، أمـا أنتم فلكم الفيض من المـاء والعـزم من الطحن ، ومن حقكم على الجزائر أن تعرف مـاءكم وطحنكم وأن تتغـذى منـه كل الجهات والنواحي ، ومن حق الجزائر عليكم أن تمـدوهـا بمـا

عندكم من رصيد في الأدب والعلم ، والتضامن والجد ، ومن روح المبادرة والوفاء ، وفوق كل ذلك ما عندكم من غيرة عمرية على تراث الاسلام ولغة القرآن .

أبو القاسم سعد الله
الجزائر في 31 مايو 1990



« ... إن هذا الحكم الإسلامي الرستمي المتين ، كان من أحسن النظم التي انتشرت ببلاد الإسلام ، فالإمام هو الذي يقود رأس الدولة وبيده مقاليد أمور الدين والدنيا معاً ، كان محاطاً بجماعة (الشراة) وهم علماء المذهب وكبار رجال الرأي من الإباضية ، وهو لا يحكم إلاّ بهم ، ولا يسير إلاّ مع رأيهم ... » .

مدخل لدراسة الدولة الرستمية وأسهامها في التطور الفكري والحضاري(1)

دراسة بقلم الشيخ أحمد توفيق المدني (رحمه الله)
مؤرخ - (الجزائر) -(1)

سادتي الفضلاء . أبنائي البررة الكرام .

لقد أحسن الذين اختاروا لهذا الملتقى الزاهر ، موضوع مساهمة الرستميين في الحضارة وفكر الاسلام ، فهذه الدولة الرستمية الجزائرية الصميمة ، والمسلمة الصادقة ، قد نالها في التاريخ ظلم فاحش ، وغمط حقها بصفة جائرة ، إذ تعمد أغلب المؤرخين تناسيها ، أو الدسّ عليها وذلك ارضاء لملوك وامراء من خصوم مذهبها ، وهو في حقيقته اسلامي أصيل .

وقبل أن تلجوا سادتي وابنائي هذا الموضوع ، في ملتقى

---

(1)الشيخ أحمد توفيق المدني جزائري ، يعتبر من أوائل المؤرخين الجزائريين المعاصرين ، ألف العديد من الكتب في تاريخ الجزائر وكان الرائد فيها . معروف بنشاطه السياسي والثقافي المتنوع ، توفي بالجزائر في سنة 1984 .

(1) القيت هذه المحاضرة بالملتقى الحادي عشر للفكر الاسلامي . المنعقد بمدينة وارجلان مابين 6-15 فيفري من سنة ١٩٧٧ م .

اسلامي زاهر ، أرى من واجبي أن أقـدم لكم هـذا المـدخل ، وفيـه مـلاحظـات عـدة لا بـد منهـا ، لكي تتبين لكم عنـد الدراسة التي ستقدمون عليها، معالم الطريق .

أول هذه الملاحظات اننا عند دراستنـا لهـذه الحقبـة من حضارتنا الاسلاميـة في الأرض الجزائريـة ، يجب علينـا قبل كل شيء أن نتجرد عن كل تعصب مـذهبي لا يتفـق مـع الاسـلام الحنيف ولا يسير من المنهـاج العلمي الصحيـح في دراسـة الحضـارات . فـالإسـلام دين الله الخـالـد واحـد لا يتجزأ ، ومهما تعددت فيه المذاهب الاجتهاديـة والفكريـة ، فإن ذلك مجرد نظريات نابعة من صميه ، لا تزيده إلا عمقا ورسوخا ، فكلام الله وسنة رسوله ، وسيرة الخلفاء الراشـدين ومن تبعهم بإحسان ، جعلت ذلك الدين الخالد دينا عالميا ، علميا ، حضاريا ، نظاميا ، محترما في أصولـه وفي قواعـده ، واحدا في فكره وفي مناهجـه ، فـإذا مـا اختلفت فيـه بعض الفروع ، فإنها تجتمع لا محالة حول الأصول .

فـالتعصب لمـذهب ضـد مـذهب ، واتخـاذ المـذاهب الاسلامية المختلفة مطية للوصول إلى مقاعـد الحكم الزائل ، أو وسيلـة لـلاستحـواذ على النفـوذ السيـاسي في بقعـة من بقـاع الأرض انما ذلك هو الفساد المبين .

ولنـأخـذ على ذلـك الحيف التـاريخي مثـلا من الـزمن القـديم . فهـذا عبـد الرحمـان بن خلـدون المـؤرخ الاسـلامي للمغرب العربي الكبير ، يؤلف موسوعته التاريخية العظيمـة ، وهو بأرض المغرب يسجل تاريخ الامازيغيين ، ويفصل مـا

جل وما قل من أمورهم ، ومن دولهم واماراتهم ، ويذكر إلى جانب ذلك تاريخ من جاورهم ومن حل بأرضهم من مختلف الأقوام حتى اننا لنراه يذكر تاريخ بني سلامة وقلعتهم ، ولو لم يحل بها ويكتب بها جزءا مهما من مقدمته الخالدة لما كان التاريخ يذكرها بخير أو بشر ، لكننا مقابل ذلك لانراه يعني بدولة الرستميين الاباضية إلا قليلا ، وفي صفحات متباعدة يسيرة ، ويدعو مذهبها «بدعة» وهي أول دولة أمازيغية منظمة في الاسلام ، انتشرت فوق أديم الأرض الجزائرية واستقرّت ما يزيد عن الثلاثين ومائة سنة .

فهل كان يجهل تفاصيل وجودها ، ونظام حكمها ؟ أو كان ينكر فضلها ؟ أو كان يستهين بما أحدثته أيام حكمها الزاهر من نظم أساسية مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ؟ كلا . ان ذلك الفكر العبقري الذي اعتصر من سنن الحياة ومن تاريخ الحضارة الانسانية قاطبة مقدمته التي : اصبحت معلمة عالمية ، لا يمكن أن ينسى دولة قامت على أرض المغرب الأوسط ، ولا يمكن ان يتغافل عن وجود حضارة اسلامية صحبت تلك الدولة واستمرت معها ، ثم هي لا تزال الى يوم الناس هذا ، موجودة ، شامخة برأسها ، ذائدة عن كيانها . فما كان منه ذلك الاهمال وذلك التحقير الذي يوجب علينا اتهامه بسرقة دولة مغربية زاهرة ، الا لتعصب مذهبي ، وارضاء لخصوم ذلك المذهب ، من الملوك والأمراء .

ثم لنأخذ على ذلك مثلا من التاريخ المعاصر : ففي أوائل نشأة جامعة الدول العربية ، نشرت مصورا جغرافيا جامعا ، حشرت فيه حشرا طيبا ، مفيدا ، مختلف حقب تاريخ البلاد العربية الشرقية والغربية ، التي اشتركت في حكم البلاد في نفس الوقت ، لكنها عندما تناولت بلاد الجزائر في أوائل القرن الهجري الثاني ، ذكرت «الامارات البربرية» ، بدل أن تذكر دولة بني رستم . فهل كانت جامعة الدول العربية ، أو الذين وضعوا لها ذلك المصور التاريخي الملون ، يجهلون وجود دولة بني رستم في التاريخ ؟

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة .·. وان كنت تدري فالمصيبة أعظم

فلنترك سادتي وابنائي جانبا كل تعصب مذهبي ، ولندرس تاريخنا الخاص ، ولندرس تاريخ الاسلام العام ، كوحدة دينية راسخة ، متماسكة ، ثم لندرس تاريخ المذاهب الاسلامية - كل المذاهب الاسلامية المستمدة من الكتاب والسنة - كوجهات نظر عميقة ، استمدت من الاسلام الحنيف ، ومن أوضاع البيئة الخاصة التي ترعرعت بين احضانها ، وكيانها ، واستوحت منها سنة عملها ، ثم لنجردها عند دراستنا لها من كل الأغراض السياسية التي صحبتها أو التي الصقت بها . يومئذ . ويومئذ فقط ، نجد انفسنا ، وفي دائرة الاسلام الحنيف ، امام ثروة زاخرة من الأفكار النيرة ، ومن النظريات العميقة الصالحة ، ومن مناهج الحياة المثمرة .

أما الملاحظة الثانية التي ابديها قبل شروعكم في دراسة الدولة الرستمية ، واسهامها في تطور الفكر والحضارة في الاسلام ، فهي متعلقة بذلك الخلط المعيب الذي وقع فيه الكثير من مفكرينا ومن مؤرخينا ، قديما وحديثا ، حول قضية الخوارج ، وما صحبها من مآس ومن فضائع ، وحول قضية الخلط بين الصفرية وبين المذهب الاباضي النقي المعمول به في بلادنا ، والذي لا يزال حيا موجودا .

نقول أولا ان قضية الخوارج هذه كانت في مبدأ أمرها قضية فكر ورأى واجتهاد . وان الذين قاموا بها كانوا من أكبر وأعظم انصار علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، في حربه لمعاوية بن أبي سفيان ومن معه من أهل الشام ، دفاعا عن فكرة الخلافة الحقة ، وإمعانا في السير على سنّة من سبقه من الخلفاء .

لقد راجع اولئك الانصار موقفهم بعد معركة صفين ، ورأوا أنهم قد وقعوا في احبولة نصبها الداهية عمرو بن العاص ، حين اشار على معاوية بعد انكسار جيشه وتبدد شمل أنصاره من المرتزقة ، رفع المصاحف على الرماح ، والمناداة بالرجوع إلى كتاب الله ، ثم كانت قضية التحكيم المشهورة في التاريخ ، التي قبلها الخوارج لأول وهلة ، ورفضها علي . ثم قبلها انصياعا لرأيهم وهو كاره . ثم تأملوا فوجدوا أنهم أحدثوا بدعة في الاسلام بقبولهم التحكيم فتابوا إلى الله وأنابوا ، وأرادوا حمل علي بن أبي طالب على التوبة معهم ، ونقض اتفاق التحكيم ، فأبى وقال : ماعصيت الله ،

إنمـــا سرت مـع رأيكم وأنـــا كاره ، وليس علي أن أتـوب ولم أذنب . وهكـذا استفحـل أمر هـذا الخـلاف في الرأي فـأدى إلى خروجهم عنـه ، ثم إلى مـأسـاة النهروان ، ثم إلى ضيـاع الخـلافـة الاسـلاميـة الشـوريـة ، ثم إلى مصرع رابـع الخلفـاء الراشـدين ، وأكثر المسلمين علما وبيانا ، علي بن أبي طالب .

تفرقت بقـايـا الخـوارج بعـد ذلـك في مشـارق الأرض ومغـاربهـا ، كما تفرقت آراؤهم وتشعبت مـذاهبهم ، واختلـط امرهم على الكثير من البـاحثين والمـؤرخين ، فلم يفرقـوا بين الخوارج أصحـاب الفكرة الـدينيـة السيـاسيـة ، وبين الصفريين المتقدم ذركهم ، وبين أصحاب المـذهب الاباضي الـذين قـاموا بتأسيس دولة بني رستم .

فهل الاباضيون من الخوارج ؟

هـذا سـؤال وجيـه ، نستطيـع أن نجيب عنـه ، ونحن نستخرج الحقـائق من بين ركام التـاريخ ، أن الابـاضيين بعـداء عن الخـوارج ، وبعـداء جـدًا عن فرقـة (الصفريـة) التي تمثـل بقـايـا الخـوارج ، والتي ثـارت ثـورة عـارمـة على الـولاة العرب بـالقطر المغربي الكبير ، وخـاصـة الأوسـط منـه ، سنـة 122 هجريـة ، فـالصفريـة الخـوارج كانـوا مثـلا يحكمـون بـالشرك على مرتكب الكبيرة ، بينما الاباضيـة ، كبقيـة المـذاهب الاسـلاميـة لا يحكمـون على مرتكب الكبيرة بـالشرك والخروج عن الاسـلام . والصفريـة ، مثـلا ، يـوجبـون على الجماعة الاسـلاميـة الانتقـاض على الملـوك والأمراء المسلمين ، من أجـل اقـامـة الحكم الاسـلامي الصـالح ، حسب مذهبهم ، ويحكمـون بـالعصيـان على

من تخلف عن ذلــك ، بينمــا الابــاضيــون يرون ان ذلــك الانتقــاض جــائـز اذا مــا آنس المؤمنــون الكفــاءة في انفسهم من أجل القيام بذلك .

والصفر يـــة غـلاة في الـــدين إلى درجـــة الإفراط . فهم يسفكــون الــدمــاء سفكا ذريعــا ، وهم يعتبرون مــال خصــومهم من المسلمين غنيمــة ، وان ابنــاءهم ونســاءهم بعــد المعــارك سبي ، بينما الاباضيون يتقيدون في ذلك بنصوص الشريعة .

ولقــد كان أول إمــام لــلابــاضيين ، نــادوا بــه بعــد واقعــة التحكيم ، سنـــة 37 للهجرة ، هــو ((عبـــد الله بن وهب الراسبي)) . أمـا صـاحب مـذهبهم الحقيقي ، فهـو العلامـة جـابر بن زيـد ، إنمـا نسبـوا بعـد ذلـك لعبـد الله بن اباض ، الـذي قـام بنشر المـــذهب وتـــدوينـــه ، أن عبـــد الله بن إبـــاض كان . بــالنسبــة لجـابر بن زيــد ، كأبي يـوسف بـالنسبـة للإمـام أبي حنيفة .

الملاحظـة الثـالثـة ، التي يجب علينــا ذكرهـا عنـد دراسـة تـاريـخ الـدولـة الرستميـة الابـاضيــة ، هي أن الاباضيين الـذين هم ليســوا من الخــوارج ، لا يبغضــون عليــا بن أبي طــالب رضي الله عنــه ، كما يبغضــه الخوارج ، ولا يكفرونــه ، انمـا يشتركـون في مخالفـة رأيـه في قضيــة التحكيم فقـط ولم يعـادوه ، بـل اننـا نرى من خــلال دراستنــا لتــاريــخ بني أميّــة ، انهم كانــوا منــذ عهــد معــاويــة ، يلعنــون عليــا رضي الله عنــه من فـوق المنــابر يـوم الجمعـة ، ودام ذلــك إلى أيــام الخليفــة العــادل عمر بن عبــد العـزيـز ، فجــاءه وفــد من الابــاضيين يضم علمـاءهم واقطــابهم ،

وطلبوا اليه ان يكف عن هذه البدعة الفظيعة ، وصادف ذلك هوى في نفسه . فأصدر أمره بالعدول عن ذلك السب المقدم ، واستبداله بآية (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظم لعلكم تذكرون) ولا تزال تلك السنة الحسنة جارية إلى يومنا هذا .

الملاحظة الرابعة ، سادتي وابنائي ، هي أن الرستميين ليسوا هم الذين ادخلوا المذهب الاباضي الى أقطارنا ، بل ان ذلك المذهب انتشر في بلادنا قبل ذلك انتشارا كبيرا ، منذ ثورة الصفريين سنة 122 ، على الولاة العرب في عصرهم ، فالدولة الرستمية قامت لرعاية ذلك المذهب ، وصانته ، والسير به في اعتدال وسماحة ويمن ، كما جاء به الدين الحنيف ، مهذبة وميسرة ، وملطفة ، حسب تعليمات الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه : (بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا) .

هذه سادتي وابنائي ، بعض ملاحظات عامة ، رأيت وجوب الادلاء بها ، قبل شروعكم في بحث وتمحيص التاريخ الرستمي ، ومدى إسهامه في حضارة وفكر الاسلام .

ولنطو الآن عنان البحث الى قضية اخرى اساسية ، هي قضية الخلافات بين المذهب الاباضي والمذهب المالكي الذي نشأ بعده ، وهو المذهب السائد ببلادنا المغربية ، ذلك أن العامة والكثير من الخاصة ، يعتقدون أن هذا الخلاف المذهبي كبير وعظيم ، لا يمكن تلافيه أو التغلب عليه ،

ويجهلون ان المذهبين يسيران نحو الغاية الواحدة ، من طريقين مختلفين .

الحقيقة هي غير ذلك فالسياسة وحدها هي التي كونت هذا الخلاف ، وزادته حدة وشدة حتى إذا ما جثم كابوس الاستعمار الفرنسي الفظيع على صدر أمة الاسلام بأرضنا الجزائرية أمعن في الفصل بين المذهبين تنفيذا لسياسته»، فرق تسد ، إلى أن أصبحوا دون حياء يقررون في كتبهم الدراسية التي يتناولها صغار الطلاب ، ان الخلاف بله العداوة مستحكمة الحلقات إذا رجعنا إلى عقلاء الجانبين وعلمائهم ، ودرسنا مشاكل هذا الخلاف ، وجدنا انها تتعلق بعدد قليل من القضايا ، اغلبها يتعلق بأمور الآخرة ، وانها لا توجب نفرة ، ولا تستوجب فرقة ، انها تكاد تنحصر في القضايا التالية :

(1) المجاز في القرآن الشريف . فالاباضيون يقولون به . ويوافقهم على ذلك أصحاب الفكر الحر من المعتزلة ومن بقية المذاهب ، وذلك فرارًا من التجسيم بالنسبة لجلال الحضرة الالاهية المقدسة ، فيقولون ان قوله تعالى : (يد الله فوق أيديهم) ، يعني أن قوته فوق قوتهم ، فاليد والعين في القرآن ، معناهما القوة والعناية .

(2)الخلافة في قريش لا يؤمن بها الاباضيون ، ولا يأخذون بالحديث الوارد في شأنها ويقولون انه مفتعل ، فعندهم ان الخلافة الاسلامية هي ملك لكامل أمة الاسلام قاطبة . حسب قوله تعالى . (ان أكرمكم عند الله أتقاكم)

وتنفيذا ، للآية الكريمة : (وأمرهم شورى بينهم) . فعلى المسلمين أن يقلّدوا الخلافة من هو أحق بها ، مهما كان لونه ومهما كان نسبه . وقد جاء في صحيح الحديث : (لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب) .

(3) يقول الأشاعرة ، إن المؤمنين الصادقين يرون الله رأي العين يوم القيامة . لكن الاباضين يقولون : إن الله جل جلاله أعظم وأكبر من أن يستطيع البشر رؤيته ، ولو يوم القيامة وكذلك يقولون في كلام الله لموسى عليه السلام ، ويحكون باستحالته . ولهم على ذلك أدلة من كتاب الله .

(4) يقول الاباضيون ، إن الحق في الأصول لا يتعدد . فالمجتهد المخطيء في الأصول غير معذور . وإن إيمان المقلّد غير صحيح . بينما يقول الأشاعرة بصحة إيمان المقلد . وبأن المجتهد المخطيء في الأصول معذور .

(5) وهناك خلاف أيضا في تحديد معنى الكفر . ومعنى النفاق . فالأشاعرة ومنهم المالكية يرون أن الكفر لا يطلق إلا على المشرك بالله . ويرون أن النفاق إنما هو التظاهر بالايمان والتوحيد وإخفاء الشرك : أما الاباضيون فيقولون إن الكفر يطلق على معنيين ، هما الشرك والنفاق . وأن النفاق يطلق على معنيين . نفاق خيانة ، أي ارتكاب كبيرة من الكبائر . ونفاق تحليل وتحريم ، فالاباضي يطلق كلمة الكفر على معنى النفاق أي الفسوق . ولا يعني به الشرك .

(6) قضيــة الشفــاعــة . يقــول الاباضيــون : إن الشفــاعــة الــورادة في القرآن بـالنسبـة ليـوم القيـامـة لا تنـال من مـات على كبيرة . وإنمــا تنـــال من مـــات على الـــوفـــاء . بينمـــا يقـــول الاشاعرة إن الشفاعة تنال أيضًا أصحاب الكبائر .

(7)هنـــاك قضيـــة القرآن الكريم ، التي وقعت فيهـــا المحنـــة الكبرى أيـام المـأمـون العبـاسي ومن بعـده . فـالاباضيـون ، قبـل المعتزلـــة ، يقــولــون بـــان الله خلـق ، وأن الله وحـــده هـــو القــديم . بينمـا يقــول الأشــاعرة بعــد ذلـك ، يقــولـون بقـدم القرآن ، بصفته كلام الله . فالله قديم بوجوده وكلامه .

(8)أمــا قضيــة صفـات الله ، وهي قضيـــة نظريـــة بحتـــة ، فـالاشــاعرة يقـولـون إن صفـات الله غير ذات الله ، بينمـا يقـول الابـاضيـون إن الله وصفـــاتـــه أمر واحـــد ، بمعنى أن الله جـل جلاله الكمال المطلق .

(9)يقــول الابـــاضيــون إن من مـــات عن كبيرة وعن غير تـوبـة ، فهـو خـالـد في النـار ، بينمـا يقـول الاشـاعرة إن الـذي مـات عن كبيرة ودون تـوبـة ، وهـو مـؤمن بـالله وبرسـولـه ، إنمـا هــو تحت مشيئــة الله ، إن شـاء عـذبـه على مقــدار معصيــة ، وإن شاء غفر له .

(10) ومن هــذه الخـلافـات النظريـة الـدقيقـة ، قضيـــة تعريف الايمـان ، فـالاباضيـون يقـولـون ان الايمان لـه ركنـان ، همـا القـول والعمــل . وانــه لا يتم الا بهما معًـا ، فمن أمن قــولا ، وشهــد ان لا إلــه إلا الله وأن محمــد رســول الله ، ثم لم يعمــل بمـا جاء بــه الاســلام ، فهـو ليس بمؤمن . بينمـا يقـول الاشـاعرة إن

الايمان بقواعده الخمسة ، ولو دون عمل ، يكفي للنجاة من النار .

هذه أيها السادة والأبناء ، هي أهم نقط الخلاف النظرية بين الأشاعرة وبين الاباضيين وهي كما ترون قضايا نظرية واجتهادية بحتة ، ولكل من الطرفين أدلته وبراهينه من الكتاب والسنة . ثم إن النظريات الاباضية التي ذكرناها ، لا نفرد بها أصحاب هذا المذهب فقط بل يشاركه في كل منها بعض المذاهب الاسلامية الاخرى . أما في الفروع وفي أحكام الاسلام ، فلا تكاد توجد خلافات . وإن وجدت فهي تافهة فأنتم ترون سادتي وأبنائي أن هذه الخلافات ما كان ينبغي أن توجد نفرة أو تحدث شقاقا بين جماعة المسلمين ، لولا ماصحبها من خلافات سياسية ، ومطامع في الملك والسلطان .

أما الخلافات السياسية فقد زالت وانتهت والحمد لله ، وأصبحت نظريات كل مذهب تدرس بصفة فلسفية ، مقارنة ، وأنها بهذه الصفة لتزيد العقيدة الاسلامية عمقا ورسوخا وتزيد الفكر الحر اتساعا وشمولا .

بل إن العلاّمة الاباضي ، المجاهد سليمان باشا الباروني رحمه الله ، ليقول ، ونحن في ذلك معه ، ما نصه : (متى يأتي يوم لا يذكر فيه المسلمون في الشرق ولا في الغرب إلا الله ورسوله وكتابه ، ولا يذكرون الأئمة الا باسم علماء كغيرهم من علماء الاسلام فيصبح الدين واحدا ، والمذهب واحدا ، لا طرق فيه ولا مذاهب) .

على هـذه المبـادىء ، وتثبيتـا ودفـاعـا عن هـذه الأسس ، شكل العلامـة القـائـد عبـد الرحمن بن رستم الفـارسي ، دولتـه الأبـاضيـة الكبيرة بمغربنـا العربي الأوسـط ، سنـة 160 للهجرة . وأنشـأ لهـا عـاصمـة جـديـدة هي تيهرت ، محـاذيـة لتيهرت القـديمـة ، على نحـو أربعـة أميـال . ولنـا كـذلـك على تأسيس هذه الدولة الأباضية القيمة ، ملاحظات .

أولها : إنها أول دولة منظمـة في الاسلام ، قـامت مستقلـة عن الـدولـة العباسيـة وهي في أوج قـوتها ، فـالـدولـة الادريسيـة في المغرب الأقصى ، تـأسست سنـة 172 للهجرة . واستقر أمر الـدولـة الأغلبيـة في القيروان والشرق بعـد ذلـك . وكـذلـك الدولة الطولونية بمصر . ودولة بني أمية بالأندلس .

وثـانيهـا : إن دولـة بني رستم كانت مستقرة فـوق قـاعـدة شعبيـة متينـة ، فـالمـذهب الابـاضي كان منتشرا كما أسلفنـا انتشـارا ذائعـا بـالمغرب الأوسـط وبطرابلس وبجنـوب البـلاد ، وكانت لـه حروب طـائلـة ومصـادمـات عنيفـة مـع جنـد الخلافـة . بلـغ فيهـا عـدد القتلى من الجهتين مبلغـا مؤلمـا ، وأنـه على أثر نكبـة فـادحـة حلت بـالابـاضيين على يـد القـائـد ابن الاشعث ، انهـزم عبـد الرحمـان بن رستم ومن معـه من علمـاء وكبـار الإبـاضيـة الى أن حـل بـأواسـط مغربنـا الأوسـط فـاستتر ، وأسس العـاصمـة الجـديـدة «تيهرت» وأنشـأ دولتـه المثالية ، فكانت دولة أباضية بحتة .

ثـالثهـا : إن تـأسيس هـذه الـدولـة التي انتشرت في مغربنـا الأوسـط انتشـارا ذائعـا ، قـد انقـذت البـلاد من تلـك الثـورات

المتعاقبة ، وتلك الغارات الطاحنة ، وتلك الفوضى التي ضربت أطنابها حينا من الدهر في كامل مغربنا ، فأنقذ الله بهذه الدولة الفتية أمن هذه البلاد ، وأعاد لها الراحة والهدوء ، فأخذت بأسباب التقدم والعمران .

رابعها : إن هذه الدولة قد دامت في الحكم 130 سنة ، وكانت تستطيع البقاء في الحياة أكثر من ذلك ، لولا موجة عارمة نشأت بشرق الأرض الجزائرية ، ثم التأمت وقوي ساعدها بالمغرب الأقصى الشقيق ، ففاضت على البلاد مكتسحة ، موحدة ، تلك هي دولة الفاطميين التي اختطت نظاما جديدا ، ونشرت مذهبا دينيا آخر ، هو المذهب الشيعي فدولة الرستميين ما ماتت على يد شعبها ، وما انتهى حكمها لضعف مذهبها الاباضي ، انما انتهى أمرها على يد قوة جاءت من الخارج .

خامسها : إن هذا الحكم الاسلامي الرستمي المتين ، كان من أحسن النظم التي انتشرت ببلاد الاسلام . فالإمام الذي هو رأس الدولة ، وبيده مقاليد أمور الدين والدنيا معا ، كان مُحَاطاً بجماعة «الشراة» وهم علماء المذهب وكبار رجال الرأي من الاباضية ، وهو لا يحكم الا بهم ولا يسير الا مع رأيهم . وهم يحفظون الدين ويرعون مصالح المسلمين حسب أصول المذهب .

وإلى جانبهم ومن بين صفوفهم يختار قضاة المسلمين الذي اشتهروا بالنزاهة والعدل وعدم التحيز الا للحق . وكانوا يجتمعون في محلات تدعى «دار القضاء» للفصل بين

خصومات المسلمين الا الجرائم التي كان يعقد لها مجلس خاص يرأسه الإمام رئيس الدولة وحوله خاصة العلماء .

ثم أنهم نظموا الشرطة نظامًا بديعا ، يشمل المدينة العاصمة ويشمل غيرها من البلاد فلم تكن هنالك مع الشرطة أيد تستطيع الفساد .

ورتبوا جماعة الحسبة ، من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ترتاد الأسواق والمدن والبادية ، قائمة بما أوجبه الله ، حتى رعاية الحيوان والرفق به كانت تقوم به خير قيام ، حسبما أكده المؤرخون المنصفون .

أما بيت مال المسلمين فكان على غاية الدقة والنظام ، كما كان أيام أبي بكر وعمر .

سادسها : أن هذا الحكم الاسلامي الاباضي ، وإن كان تأسيسه على مذهب الشورى بعيدا عن حكم العائلات لم يسلم من داء الوراثة .

فبعد موت الامام ابن رستم ، ولي الامر ابنه ، لانه كان الاصلح للحكم . ثم تولى بعده أبناؤه وأعمامه ، وفيهم الصالح الأكرم كأفلح واليقظان ، وفيهم الميال للحضارة والاسراف كأبي بكر بن أفلح .

سابعها : ان حركة العلم والأدب انتشرت أيام هذه الدولة انتشارا ذائعا ضاهت به حركة العلم والأدب بالقيروان ونبغ بها شعراء من الطراز الأول بلغوا مكانة سامية .

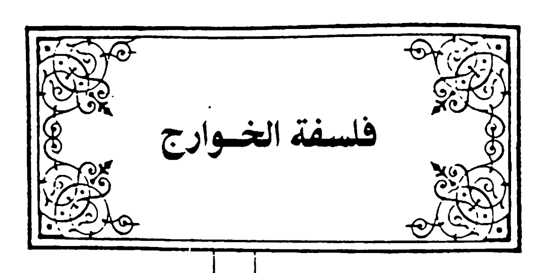
ثامنها : ان هذه الدولة لم تمت بحضارتها ، وبعلمها ، وبمذهبها ، كما مات غيرها من الدول إذ ما كاد المد الشيعي

يعمر الأرض الجزائرية ويضمها اليه وينهي أمر تيهرت ، حتى هاجر عامة الدولة وخاصتها بأهلهم ومتاعهم ، فاستقروا حينا بصدراتة ، وببني وارجلان (ورقلة) ثم حطُّوا رحالهم نهائيا بوادي مصاب ، وما حوله ، وأسسوا قراهم البديعة ، وبساتينهم اليانعة ، وقاوموا الطبيعة فتغلبوا عليها ، وأقاموا لمذهبهم الاباضي أسُسا جديدة صلبة ، دائمة ، صالحة ، نراها إلى الآن زاهرة زاهية ، ضمن الجامعة الجزائرية الحرة المستقلة .

فالميزابيون اليوم ، بمذهبهم الاباضي ، وبعاداتهم ، وبتقاليدهم ، هم اليوم من صميم القومية الجزائرية ، وانهم الامتداد الطبيعي التاريخي لدولة بني رستم ، التي لا تزال حية بهم ، وفي سَمْتِهم .

والسلام عليكم سادتي وأبنائي . وشكرا لكم جزيلا .

أحمد توفيق المدني



يقـول الشهيـد سيـد قـطب في بحثـه عن فلسفـة الخروج وفيه يتعرض إلى الإباضية .

«. . . ورأينـا الـذي نـرجـو من ورائـه الخيـر لنـا وللمسلمين ألا يكـون الخـلاف المـذهبي سببـاً للخصومة والفرق بين طوائفهم ، وبخـاصة إذا لم يؤد إلى تكفيـر أو قتـال . ومن حسن الحظ أن في فقه الإباضية وأصول مـا ذهبوا إليـه من المرونـة ما يسمح بالتقائهم مع غيرهم على ما يصير به المسلم مسلمـاً من أصول الـدين وقواعـده الأساسيـة فيمـا نعلم ، وفي ذلك الكفاية . . . » .

فلسفة الخوارج(1)

بقلم الشهيد سيد قطب

وإنما اخترت أدب الخوارج لأنه أدب قوم ذوو عقيدة وإن خالطها الكثير من الخطأ - وما أشد حاجتنا إلى أن نكون من أهل العقائد بعد أن طال عهد التحلل بالناس ، وما أروع الإيمان على أية صورة برز وإن كان لا ينتج الخير إلا مع الحق .

ولسنا نحاكم مذهب الخوارج ولا آراءهم بهذه الكلمات فأمرهم إلى الله ، وقد أفضوا إلى ماقدموا ، ولا تزال بقية كثيرة منهم تعيش في الوطن الاسلامي الفسيح وهم الإباضية في شمال إفريقية وفي شرقيها - ورأينا الذي نرجو من ورائه الخير لنا وللمسلمين ألا يكون الخلاف المذهبي سببا للخصومة والفرقة بين طوائفهم وبخاصة إذا

---

(1)الشهيد الإمام سيد قطب يعتبر من رواد الحركة الإسلامية الفاعلة في العصر الحديث رادها كتابة . وسلوكاً . وجهاداً أو هو امتداد للإمام الشهيد حسن البنا . أعدمته الأنظمة المصرية الظالمة في سنة 1966 .

(1) بقلم الشهيد سيد قطب . الشهاب (المصرية) ع . 15 . غرة جمادي الأولى 1367/مارس 1948 .

لم يؤد إلى تكفير أو قتال - ومن حسن الحظ أن في فقه الإباضية وأصول ما ذهبوا إليه من المرونة ما يسمح بالتقائهم مع غيرهم على «ما يصير به المسلم مسلما» من أصول الدين وقواعده الأساسية فيما نعلم وفي ذلك الكفاية .

وكل الذي أردنا أن نستعرضه في هذه العجالة صور من أدب رائع رفيع كان مبعثه عمق الايمان وصلابة الارادة وقوة العقيدة ومضاء العزم وإيثار التضحية ومواصلة الجهاد .

فرق الخوارج

وقد كان انتقاض الخوارج أول امرهم وخروجهم انتقاضا سياسيا مبعثه عدم موافقتهم على التحكيم في خلافة المسلمين ، ومن ثم أنكروا ولاية الناس وقالوا : «لا حكم إلا لله» ورد عليهم أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه بقوله : «كلمة حق يراد بها باطل» نعم إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله ، وإنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر ، ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفيء ، ويقتل به العدو وتأمن به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوى حتى يستريح بر ويستراح من فاجر .

ثم تحولوا إلى خلافات دينية ، وجدل في فروع المسائل والأحكام وصار لهم فقه خاص مصدره تحديد صلتهم بغيرهم من المسلمين وطريق معاملتهم إياهم ، ورأيهم في الخلافة وفي حقيقة الإيمان ، فهم كانوا يرون أن الخلافة من حق المسلمين عامة وتكون باختيار حر

منهم ، ومن استخلف فليس لــه أن يحكم أو يتنــازل وليس من الضروري أن يكون قرشيا ، وكانوا يرون أن العمل جزء من الايمان فمن قصر في فريضة من فرائض الله فقد كفر - واختلفوا في أمر غيرهم من المسلمين فمنهم من رأى وجوب قتالهم ومعاملتهم كأشد الكفار كفرا لا يقبل منهم إلا الرجوع إلى الاسلام والدخول في رأيهم أو القتل بالسيف ، ومنهم من يرى التكفير والقعود عن الحرب ، ومنهم من يرى الانكار والمخالطة وانتهى أمرهم إلى فرق أربع .

«الأزارقة» أصحاب نافع بن الأزرق .

«والنجدات أو النجدية» أصحاب نجدة بن عامر .

«الاباضية» أصحاب عبد الله بن إباض التيمي .

«والصفرية» أتباع زياد بن الأصفر .

وقد انقرضت هذه الفرق جميعا إلا الاباضية فبقيتهم «بشمال أفريقية بالجزائر وتونس وفي شرقها بجزيرة مسقط وما إليها» ومن علمائهم الأجلاء صديقنا الشيخ ابراهيم إطفيش ولهم كتب متداولة وهم ينكرون على غيرهم أن يطلق عليهم اسم الخوارج ، ويقولون نحن فئة من المسلمين لنا أراؤنا وما ذهبنا إليه مع إيماننا بالله ورسوله وكتابه فما بالكم تفردوننا بهذا الوصف وتخصوننا به وهو اعتراض له وجاهته ، ولئن كان لهذه التسمية ما يبروها في الماضي فما أحوجنا أن نتناساها اليوم والمسلم أخو المسلم .

فلسفة الخوارج :

وليس غريبا أن يخرج على الجماعة الصالحة بعض أفرادها وليس

غريبًا كذلك أن يكون الكثير من هؤلاء الخارجين من خيار أبنائها وخلاصات رجالها فإن من خصائص الجماعة في كل عصر اختلاف الأمزجة وتضارب المصالح والأهواء ولا يقضي على المعنى الأول إلا الثقة التامة بالقيادة ولا يقضي على الأمر الثاني إلا الإخلاص الكامل والتجرد للغاية ، ولا يعين عليهما معا إلا حسن الإدراك واكتمال الوعي وتمام النضج والتوازن بين الملكات» ومن هنا كان ملاك أمر الجماعة القوية الموحدة هذه الأمور الثلاثة : الثقة بالقيادة ، والإخلاص للغاية ، وحسن الإدراك ؛ ومتى عرض الضعف لواحد من هذه الثلاثة فقد تخلخل بناء الجماعة . وكان عن هذا التخلخل ولا شك تخلّف بعض الأفراد عن ضعف ثقة بالقائد ، أو عن غلبة هوى عارض ، أو عن سوء تقدير وفهم للظروف والمواقف ومقتضيات الأحوال .

كانت الجماعة الاسلامية الأولى أقوى الجماعات التي عرفها التاريخ لأن القائد فيها رسول من عند الله - ضعف الثقة به كفران ، وأن الجند فيها خلاصة المؤمنين وكملة أهل الإخلاص لله رب العالمين ، ولأن أشعة الإيمان القوية أضاءت جوانب صدورهم وحنايا ضلوعهم فكانوا على نور من ربهم . وكان أحدهم إذا عرض له عارض من وسوسة أو سوء تقدير اعتصم بإيمانه . والتجأ إلى ثقته بقيادته فاطمأن به وسكن خاطره . واعتبر هذا وتأمله في قول أبي بكر لعمر رضي الله عنه يوم الحديبية : «ويحك يا عمر استمسك بغرز الرجل فإنه رسول الله أو قال لك هذا العام ؟» لترى اعتصام أبي بكر رضي الله عنه بهذا الايمان العميق والتجاءه إلى الثقة بالقائد رسول الله ﷺ .

وهؤلاء الذين خرجوا على - علي كرم الله وجهه - من

الصنف الأخير لم تضعف ثقتهم به إلا قليلا . ولم يخالطهم هوى أو غاية لأنهم آثروا أن يحملوا عبء التضحية والجهاد وحدهم بعد أن كانوا يحملونه مع غيرهم ، ولكنهم خالفوا في تقدير الظروف ومقتضيات الحوادث ووقفوا دون رأيهم مكافحين . ومن هنا عرفت عنهم الصلابة والشدة والعزيمة والقوة ، وامتاز أدبهم بهذه المعاني الجميلة الرائعة التي تبدو دائما مع جلال الإيمان .

أدباء الخوارج :

وكان معظم الخوارج عربا صرحاء جلهم من البادية .وانضم إليهم نفر من الموالي . وقد نبغ فيهم الكثير من الشعراء والخطباء عرفوا فصاحة اللسان ونصاعة البيان . وقوة الجنان ، مع تخير اللفظ وجودة المعنى وقوة السبك وبراعة الأسلوب وعمق التأثير وسلامة المنطق والبديهة الحاضرة والجواب المسكت يشترك في ذلك رجالهم ونساؤهم على السواء .

ومن أشهر خطبائهم : أبو حمزة ، وقطري بن الفجاءة . ومن فحول شعرائهم : عمران بن حطان ، والطرماح ، ومن أجل علمائهم باللغة والأدب أبو عبيدة معمر بن المثنى مع أوسع أهل البصرة علما بالنحو واللغة والأدب وأخبار العرب وأيامها . وإن الناظر في خطبهم وأشعارهم ومناظرتهم وإجابتهم ليلمس هذه الخصائص ويدرك جليا هذه المميزات في أدب الخوارج .

أجوبة مسكته وبديهة حاضرة :

وقفت امرأة منهم بين يدي الحجاج فتوعدها بقوله : «والله لأحصدنكم حصد السلم» فقالت أنت تحصد والله يزرع فأين قوة

المخلوق من الخالق ؟ !

ووقف رجل منهم بين يدي عبد الملك بن مروان فدخل عليه بعض ولده يبكي فزجره فقال له الخارجي «دعه فإنه أرحب لشدقه وأجهر لصوته وأرق لقلبه وأجرى لعينه أن تدمع من خشية الله» فلم يشغله ما هو فيه من خوف القتل عن أن يعرض لمثل هذا الشأن بمثل هذا التقسيم البديع والعبارة الخالبة الطلية .

وأتي عبد الملك بن مروان برجل منهم فدعاه إلى الرجوع عن مذهبه وألح عليه في ذلك فقال الخارجي لتغنك الأولى عن الثانية وقد قلت فسمعت فاسمع أقل ؛ قال له قل : فجعل يبسط له من قول الخوارج ويزين له من مذهبهم بلسان طلق وألفاظ بينة ومعان قريبة حتى قال عبد الملك «لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم وأني أولى بالجهاد منهم ثم رجعت إلى ما ثبت الله علي من الحجة وقرر في قلبي من الحق» .

وكانت أم حكيم الخارجية تلقى الأبطال وتحمل على الرجال وتقارع الفوارس في حومة الوغى وهي ترتجز .

أحمل رأساً قد سئمت حمله وقد مللت دهنه وغسله

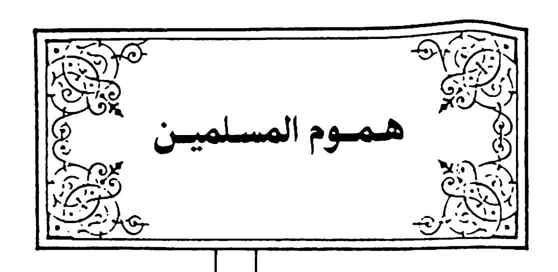
ألا فتى يحمل عني ثقله

وصف :

ولقد وصف أبو حمزة الخارجي أصحابه بهذه العبارات البليغة التي تقطر رقة وتفيض سلاسة وتغوص إلى أعماق النفوس فقال :

«شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، جميلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح سهر ، ينظر الله إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مر أحدهم

بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه موصول كلالُهم بكلالِهم ، كلال الليل بكلال النهار ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم واستقلوا ذلك في جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت والرماح قد أشرعت والسيوف قد انتضيت ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ومضى الشاب منهم قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضّبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض وانحطت إليه طير السماء فكم من عين في منقار طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها بالسجود لله .



من رسـالة إلى الشيـخ بيوض يقـول عن ميزاب «إن صـورة المجتمـع الـذي شهـدتـه تقى وتمـاسكـاً ، صلاحلاً وتفتحاً ، رقّة وبعد نظر ، من الصور التي ستعايشني ما دمت واحـداً من الجماعـة الإسلاميـة الكبـرى التي تنـظر إلى غـد مشـرق يحيى فيـه المسلمـون كما ولـدوا إخوة يفضلون الجمـاعـات الأخرى ، ويتفاضلون فيما بينهم بمقياس واحد هو التقوى. . . .» .

همـوم المسلميـن (1)

رسالة إلى الإمام الشيخ بيوض
بقلم : الدكتور شكري فيصل (رحمه الله)

السيد الأستاذ الجليل العالم العامل الشيخ بيوض إبراهيم حفظه الله وأفاء عليه نعمة التوفيق السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد فقد عدت إلى الجزائر العاصمة من الجزائر الواحات ممتلىء النفس بالذي لقيت وشهدت وسمعت وأحسست أن كل شيء حولي يثيرني ويغنيني وينمي كل عاطفة خير عندي ويبعث الومضة تلو الومضة في ذهني ... ولم أكن خلال هذا الأسبوع في الحاضر وحده ولكني كنت أتراوح هذا التراوح البعيد بين الماضي والحاضر والمستقبل .

أن صورة المجتمع الذي شهدته تقي وتماسكا ، صلاحا وتفتحًا ، رقة وبعد نظر من الصور التي ستعايشني مادمت واحدا من الجماعة

---

(1)الدكتور شكري فيصل (رحمه الله) سوري من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر ، أديب من أساتذة الجيل . مشهور بمؤلفاته النقدية ، والتراثية . درّس في جامعات عربية كثيرة . توفي في خريف 1987 .

الإسلامية الكبرى التي تنظر إلى غد مشرق يحيى فيه المسلمون كما ولدوا إخوة يفضلون الجماعات الأخرى ويتفاضلون فيما بينهم بمقياس واحد هو التقوى .

أن هذه الرسالة القصيرة لا تتسع للتعبير عما يملؤني ... فقد عشت معكم وبينكم كا لو كنت واحدًا منكم أو كنتم بعضا من دنياي العريضة الفاضلة التي أتطلع إليها ... وكانت الرعاية التي راعيتموني بها نموذجا للخلق الاسلامي الرفيع.الذي يجد في المسلم أخاه ، وكانت الأحاديث التي أسمعتمونيها نموذجًا للفكر الاسلامي المتطلع الذي يريد أن ينفتح على كل ما حوله ليستوعب كل ما حوله ... وكانت هموم الحياة التي وجدت أنها تستبد بكم نموذجا لهموم الحياة الاسلامية التي تريد أن يكون لها في كل المجالات : زراعة وصناعة وتجارة أوفى نصيب ... وكان القلق الذي يغشاكم وأنتم تنظرون حالة المجتمع الاسلامي هو القلق المنتج الخصب الذي يتخذ من فساد الواقع منطلق قوة لا منطلق بأس .

وأشهد لقد كان كل ذلك غذاء يمدني بالقوة ويسعفني بالأمل ويفتح لي على طريق المستقبل أعرض النوافذ وإذا كان لمثل هذه اللقاءات من فائدة فذلك حين تجاوز اللقاء إلى الصلة ، والأستاع إلى الوعي ، والفكرة الواحدة إلى الفكرة المتكاملة ، والأفق المنفرد إلى الأفق المشترك .

وذلك هو الذي كان عندي من أثر . من أكبر الأثر . وفي هذه الأيام التي سعدت فيها بالاجتماع اليكم ... وذلك هو الذي يدفع لي ، وقد عدت ، أن أجلس فأكتب إليكم .

وكان من الحق أن أكتب إليكم من قبل شاكرًا ... ولكني أحس

أن كلمات الشكر دون أن تستطيع الوفاء بالذي أحب أن أقول ... فلأدع ذلك ليكون حديث القلب إلى القلب همسا من غير جهر ومناجاة من غير تقييد ويبدو لي أني أستطيع أن أدير حديثي حول نقاط أربع .

أن هذه النقاط تنبع من اعتقادنا جميعًا بأن الإسلام المعاصر – أعني إسلام المعاصرين – يعاني أزمات حادة منشؤها هذا التطور الضخم الذي تعانيه الجماعة الاسلامية : وهذه الأفكار الكثيرة الجديدة تداخلها حينًا وتغزوها حينًا وتفرض عليها في حين ثالث ... وأن الإسلام والمسلمين مناهم في كثير من المرات هدف هجوم حاد لا يمكن أن ينال بعضهم وأن يعف عن بعض آخر ... وأن الجماعات الصغرى لا تملك مهما تؤت من براعة الذهن وشدة التماسك وقوة المحافظة أن تبقى وحدها وبخاصة في هذه الفترات من تاريخ العالم التي يطال فيها كل شيء كل شيء والتي تتخلل فيها التأثيرات كل طبقة وتنفذ من كل المسامات وتركب الهواء والرياح والأثير والفضاء إلى أعمق أعماق الدنيا .

والمسلمون جميعًا أمة واحدة من دون الناس ... ولأنهم كذلك فان أبرز ما يميزهم أن تكون حركتهم واحدة وأن تكون وجهتهم واحدة على نحو ما هي قبلتهم واحدة كذلك ولذا يبدو وضروريًا أن يكون دفاعهم واحدا ضد هذه الهجمات المستشرية .

1 – نحو فكر اسلامي غني مكين

والذي يهاجمون به الآن ليس الاستكبار كما في أيام مكة ولا النفاق كما في أيام المدينة ولا الحرب كما كان شأن الصلبيين وانما هو

إفساد العقيدة لا بالعقائد السابقة القديمة كما حدث في أيام العباسيين وإنما بالثقافة الجديدة التي تتصل بالحياة والغذاء والرفاهية وتتلبس بالانسانية والتحرر ... وأعني - بإيجاز - التي تجمع بين المثل والواقع .

فكيف يستطيع المسلمون أن يثبتوا لهذا ؟

أن عقيدتنا لا تتزلزل في أننا نستطيع ذلك ... ولكننا من أجل أن نواجه هذه الأخطار الفكرية لا بد لنا من تفهمها أولا لتكون مواجتها بفكر مماثل أو بفكر أغنى ... لا بد من أن تكون (أو يكون جماعة منا) على صلة بكل التيارات المعاصرة وأن تكون في ذات الوقت على صلة بكل ما في الاسلام من حقائق حتى تستطيع أن تنهض بهذه المهمة .

وأكثر المسلمين اليوم - والأسف يحزنا - لا يجمعون بين هذين : بين من يعرف الاسلام معرفة دقيقة وبين من يعرف الفكر المعاصر معرفة دقيقة ... وندرة نادرة أولئك الذين يستطيعون أن يكونوا «القوى الأمين» الذي أشار إليه القرآن الكريم .

أفليس من الضروري إذن أن تتفرغ جماعة من مفكرين لهذا ؟ أليس ذلك فرض عين نأثم جميعا في أهماله إلا أن ينقذنا من ينهض به ليرفع هذا الإثم ؟

هنالك محاولات فكرية كثيرة خلال نصف القرن الأخير ... ولكنها موزعة مشتتة ... هذا أولا ... والسلاح الفكري متجدد دائما وهذا ثانيا ... ثم ليس هو سلاح الأفكار المادية ولكن سلاح الكنيسة التي تحاول بناء فكر جديد ... فلا بد أذن من أن ينفرد بعض المسلمين لهذا ما دام هذا الفكر لا يتسرب إلى مجتمعاتنا تسربا

وأنما يهاجمها هجومًا .

هل نوفق اذن إلى : افراد جماعة من الشبان النابهين إلى الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية يعدون اعدادًا سلاميًا متميزًا في الدراسة الثانوية وفي سنة بعدها أو سنتين يحملون على اتقان لغتين أجنبيتين من ثلاث (الانجليزية ، الفرنسية ، لروسية) ويبدأون مرحلة الليسانس في بلد عربي ثم مرحلة لدكتوراة في واحد من هذه البلاد ثم ينتظر ما يكون منهم من خير بأذن الله ؟

الفكر المعاصر ياسيدي ذلك هو الذي يجابه بفكر مثله ... ولعل ذلك أن يكون من ثمرات حركة الاصلاح التي تقومون عليها ومعهد الحياة الذي تريدون أن يكون أبناؤه للحياة .

2 - المشاركة في أعمال الفداء

المسلمون اليوم في فلسطين على أبواب كارثة أن هم تخاذلوا وعلى عتبة النصر أن هم اتحدوا وقد انتهى الرأي إلى عمل الجماعات لا إلى عمل الحكومات بعد سلسلة من التجارب المرة ومعنى ذلك أن الأمر نتهى إلى الجهاد المنظم ولا بد لنا من أن نعطي هذا الجهاد لونه لاسلامي . وإذا كانت الحكومات لأسباب واضحة أو خفية لا نستطيع أن تعمل باسم الاسلام - تقية أو الحاد - فأن من واجب لمسلمين أن يعملوا باسم الاسلام وجده .

أن أثر ذلك في مستقبل حياتنا أثر شديد ... أن الأجيال المقبلة ستقول أن تحرير فلسطين تم باسم الدين وحينئذ يكون لهذا الدين مكانه في المجتمع الجديد أما إذا كان التحرير بهذه الأسماء الجديدة فأن

ذلك سيمد ظله على المستقبل وقد يؤدي إلى طمس الهوية الحقيقية لهذا الجهاد .

من هنا أتمنى أن يفتح باب التطوع لهذا الغذاء في الجماعة في صفوف حركة التحرير حتى يكون للمتطوعين أثرهم فيما قبل المعركة وفي المعركة وفيما بعدها .

3 – التبشير الاسلامي في افريقية

موضوع الإسلام في افريقية يوشك أن يكون أحد الأهداف الأساسية في السياسة العالمية ولست أفيض في ذلك وحسبي أن أشير إلى أن الاسلام الأسود هو الذي يخيف الدوائر الأجنبية كلها علمانية ومدنية شرقية وغربية أوربية وأمريكية ، كاثلوكية وبروتستانتية ولذلك تبذل جهود لا حصر لها لمحاربته في أفريقية والسياسات الأخيرة في القّارة ـ السودان الجنوبي وحركة الانفصال والتبشير الحبشة مع مسلميها ومع إرتيريا والصومال – السينغال وسنغور – بيافرا ونيجريا – مقتل الزعيم النجيري أحمد ـ وجه من وجوه الحرب مع الاسلام وأهله ومحاولة لحصر الاسلام في شمال الصحراء الكبرى مع محاربته في هذا الشمال .

ولذلك يذهب كثيرون إلى أن وجه المستقبل العالمي سيكون في أفريقية وبما يكون من صراع المسيحية والاسلام فيها أذ لا تزال هناك ملايين عشرة أو خمسة عشرة في وثنية لابد أن تنتهي بعدها إلى دين

وحسبكم في تصوير قوة هذا الصراع أن تضطر الكنيسة لأول مرة في تاريخها الى اباحة تعدد الزوجات في أفريقيا تيسيراً لمهماتها

الأساسية .

فهل من الممكن أن تتخذ بعض الجهود في ذلك : نعد جماعة من الطلبة المؤمنين لهذا اعداداً (يمكن تفصيل الحديث فيه) وننذر أو تنذر نفسها لهذه المهمة التي لا يقدر أثرها وخطرها .

4 - التراث المحفوظ في وادي ميزاب

يكثر الحديث عن هذا التراث ويتوزع هنا وهناك وبعضه قيم كبير القيمة وبعضه لا قيمة كبيرة له .. ولا بد من الالتفات إليه : جمعا ثم دراسة ثم فهرسة ثم اختيارًا لنشر ما ينشر منه .

وقد يكون ترك ذلك للصدف مؤثراً في تأجيل الاستفادة منه وأعني كذلك أن يتفرغ له بعض من هم أهل له ، وهم كُثر ..

هذا يا سيدي بعض ملاحظات .. أنا جد واثق من أنكم قبل كل انسان آخر على ذكر منها ومعاناة لها ... انكم ما كنتم بحال في حاجة إلى من يتحد إليكم عنها. . . وإنما استجزت ذلك تعبيرًا عن هذه المشاركة التي يحس بها المرء ، وعرفانا لرعايتكم واستجابة إلى الآية الكريمة التي تجعل من الذكرى فرضاً في قوله تعالى : فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين . ولكن أكنتم من ذلك دائمًا الا على ذكر ويقظة وتنبيه ! ؟ ..

أني أعرف أن سعة افقكم وامتداد نظرتكم تجعل هذا الحديث وكأنه لغو أو نافلة ... ولكني أحسست مع ذلك أني مدفوع اليه على أنه تحية ومشاركة .

وحين لا يجد الانسان الخيل والمال يهديها ... ولا يجد مجال القول الذي استطاعه المتنبي في قوله

لا خيل عندك تهديها ولا مال   فليسعد النطق أن لم تسعد الحال

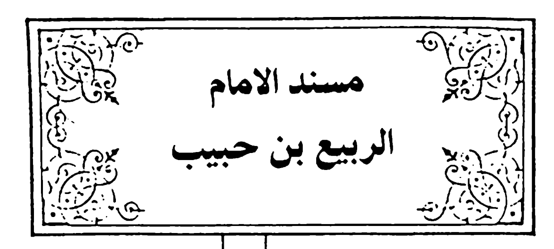
فماذا يفعل الا أن يدعو لنفسه أن يهديه الله .

وأرجو بعد أن تتقبلوا مرة أخرى خالص شكري لكم وللأخوان جميعًا : للذين احتفوا وللذين أطرفوا وللذين تعبوا وللذين استضافوا وللذين عرّفوا وعلّموا ولا أشك في أني سأحتفظ بأطيب الذكريات لكل الوجوه التي عرفت والأمكنة التي زرت .

وأول دعوانا أن يجمع الله كلمة المسلمين على الحق والخير والعمل المشترك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الجزائر : الخميس 1389/1/23 هـ
1969/4/10 م

شكري فيصل



. . . وما آثرت تخريج أحاديث المسند والشرح ؛ ولا سيما ما رواه الشيخان إلَّا لتطمئن قلوب إخواني أبناء السنة بأن مسند الربيع الذي بني عليه المذهب الإباضي هو صحيح الأحاديث ، وأكثرها مما جاء في الصحيحين ، وجابر بن زيد ممن روى عنهم البخاري وغيره لكيلا يقع فيما وقع فيه خصوم الأباضية أو من لم يعرف حقيقة مذهبهم وعقيدتهم . . .

مسند الامام الربيع بن حبيب(1)

بقلم : الشيخ عز الدّين التنُّوخي

الحمد لله وله الفضل والمنّة.، على أن هدانا للعمل بالكتاب والسنة ، والصلاة والسلام على المبعوث من أنفَس العرب رحمةً للعالمين ورؤوفاً رحيماً بالمؤمنين ، وعلى آله وصحبه المجاهدين والغرّ الميامين .

وبعد فمما جاء في فتح الباري[1] أن آثار النبي ﷺ لم تكن في عصر الصحابة وكبار تبعهم مدونة في الجوامع ولا مرتبة لأمرين :

أحدهما : أنهم كانوا في ابتداء الحال قد نُهوا عن ذلك ، كما ثبت في صحيح مسلم خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم .

وثانيهما : لسعة حفظها وسيلان أذهانهم ، ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة ، ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار وتبويب الأخبار ، لمّا انتشر العلماء في الأمصار ، وكثر الابتداع من الروافض ومنكري الأقدار ، فأوّل من جمع ذلك الربيع بن صبيح (ـ 160 هـ) وسعيد بن أبي عروبة (ـ 156 هـ) وغيرهما ، وكانوا يصنّفون كل باب على حدة إلى أن قام كبار أهل الطبقة الثالثة فدونوا الأحكام ، فصنف الامام

---

(1)الشيخ عزّ الدين التنوخي (سوري) . .عضو المجلس العلمي السوري ، من علماء الحديث البارزين .

(1) للحافظ ابن حجر ص 4 ، المطبعة الأميرية بالقاهرة 1301 هـ .

مـالـك (93 ـ 179 هـ) الموطّـأ ، وتـوخى فيـه القـوي من حـديث أهـل الحجاز ومزجه بأقوال الصحابـة وفتـاوي التـابعين ومن بعـدهم ، وصنف أبو محمد عبـد الملـك بن عبـد العزيز بن جُريج (70 ـ 150 هـ) بمكـة ، وأبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (88 ـ 157 هـ) بـالشـام ، وأبو عبـد الله سُفيان بن سعيد الثوري (97 ـ 161 هـ) ، وأبو سَلَمـة حمّـاد بن سلمـة بن دينـار (ـ 167 هـ) بـالبصرة ، ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم في النسج على منوالهم ، إلى أن رأى بعض الأئمـة أن يُفرد حـديث النبي ﷺ خـاصـة وذلـك على رأس المـائتين ، فصنف عبيـد الله بن مـوسى العبسي الكـوفي مسنداً ، وصنف مسدّد بن مسرهنـد (ـ 228 هـ) مسنـداً ، وأسـد بن موسى الأموي مسنـداً (122 ـ 212 هـ) ، وصنف نعيم بن حمّـاد الخُزاعي مسنـداً (ـ 228 هـ) .

صفاته : كان رحمـه الله ضريراً قويَّ الـذاكرة والـذكاء ، وكان شـديـد اليقظة على تطورات قومه بعمان ، فقـد عمل كثيراً على إعـادة الامـامـة إلى القطر العماني الذي قلّما عرف الملكية قديمـاً إلا في ظروف شـاذة كما وقع على عهـد بني نبهـان في عصر ابن بطـوطـة ، ولم يكن يكتم ميـولـه وآراءَه في الامامة عن السلطـان فيصل بن تركي سلطـان عمـان ، ولكنـه لم يجـد منـه انقيـاداً الى إعـلان الامـامـة بـدسـائس الانكليز الـذين يتحينـون الفرص للانقضاض على أقطار الخليج العربي ، ومطامعهم في جزيرة العرب ونفطها ومعادنها لا تحتاج الى تعريف .

وما زال هذا العالم العامل يعمل على بث الدعاية للامامة لا تأخـذه في الله لومة لائم ولا يخشى في اعلان الامـامـة سطوة غـاشم حتى بـدت للعلمـاء المسـاعي البريطانية لحمل سلطان مسقط على الاعتراف بالحماية البريطانيـة ، فأسلس العلمـاء القيـاد للنور السـالمي شـارح هـذا المسنـد وأعلنـوا الامـامـة

ببايعة الامام التقي العلامة سالم بن راشد الخروصي ، وبذلك نهض المترجم بلاده وأقصى عنها أخطار الاستعمار ، **وما في عمان اليوم من علماء إلا وهم تلاميذه ، ولا فيها من روح قومية مقاومة للمستعمرين الا منه ، فهو مضرم نارها وملهب أوارها . وان الانسان ليعجب كيف استطاع أن يؤلف تلك المكتبة في عمره القصير وهو لم يبلغ الخمسين ، فهو في قصر عمره وكثرة كتبه نظير شيخنا الجمال القاسمي بدمشق رحمهما الله ، ومن تلك الكتب :**

1) « تحفة الأعيان في تاريخ عمان » جزءان طبع أولهما بمصر .

2) « الحجج المقنعة في أحكام صلاة الجمعة » طبع بهامش شرح طلعة الشمس في أصول الفقه .

3) « شرح المسند الصحيح » للامام الربيع بن حبيب الفراهيدي ، من أئمة القرن الثاني ، في أربعة أجزاء طبع الأول والثاني منهما بمطبعة (الازهار) البارونية ، والثالث بالمطبعة العمومية بدمشق في هذه السنة .

4) « سواطع البرهان » رسالة في تطورات العصر في اللباس جواب لسؤال بعض أهل زنجبار .

5) « مدارج الكمال » ارجوزة في الفروع الفقهية تنيف على ألفي بيت ، وهو نظم مختصر الخصال للامام أبي اسحق الحضرمي . مطبوعة .

6) « معارج الآمال » شرح لهذه الأرجوزة ، وهي تنبيء عن غزارة علمه ورسوخه في علم الشريعة قيل أنه يبلغ ستة عشر جزءاً .

7) « غاية المراد » أحد متون أصول الكلام .

8) « مشارق أنوار العقول » شرح ارجوزته في أصول الدين شرحها شرحاً وافياً عدَّ به من أحسن كتب الأصول تحقيقاً وتحريراً وتنسيقاً طبع بمصر .

9) « أنوار العقول » ارجوزة في أصول الدين تزيد على 300 بيت .

10) « بهجة الأنوار » شرح (أنوار العقول) طبع بهامش طلعة الشمس .

11) « طلعة الشمس » الفه في أصول الفقه ، من أجلّ متون هذا الفن وأكثرها نفعاً .

12) شرح طلعة الشمس في أصول الفقه جدير بأن يعد من أنفس كتب الأصول .

13) « جوهر النظام » ارجوزة في الأديان والأحكام الشرعية والحِكم ، وهي بضعة عشر ألف بيت . مطبوعة :

14) « بلوغ الأمل » ارجوزة في أحكام الجمل الثلاث في الاعراب ، نفيسة جداً .

15) « الفتاوي العمانية » في سبعة أجزاء منها كتاب حل المشكلات

16) رسالة تلقين الصبيان لمدارس عمان ، وقد طبعت بدمشق بالمطبعة العمومية هذه السنة باشرافنا ، وهي رسالة مفيدة للصبيان والرجال معاً .

17) « المنهل الصافي في العروض والقوافي » ارجوزة تزيد على 300 بيت .

هذا حكم (المتصل) من أخبار هذا السند ، و (المنقطع) بارسال أو بلاغ في حكم الصحيح لثبوت وصله من طرق أخرى ، وأما (المرسل) فقد جاء في التدريب (67) عن ابن جرير قال :

« أجمع التابعون بأسرهم على قبول (المرسل) ولم يأت عنهم انكاره ولا عن أحد من الأئمة بعدهم الى رأس المائتين ، قال ابن عبد البر : كأنه يعني أن الشافعي أول من ردّه ، وقال السخاوي في فتح المغيث قال أبو داود في رسالته : أما المراسيل فقد كان أكثر العلماء يحتجون بها فيما مضى مثل سفيان الثوري ومالك والأوزاعي حتى جاء الشافعي فتكلم في ذلك وتابعه

أحمد وغيره .

وقلّ من المشتغلين بالحديث في ديارنا الشامية وفي مصر والعراق وغيرها من له معرفة برجال هذا المسند الثلاثة ، ولذا يحسن بنا أن نعرّفهم ولو بايجاز ، فأول رجال السند هو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي الذي توفي في ولاية أبي جعفر المنصور (95 ـ 158 هـ) ، وقد أدرك من أدركه جابر بن زيد ، فروايته عن جابر رواية تابعيّ عن تابعي ، وقد روى جابر أيضاً عن جابر بن عبد الله وأنس بن مالك وأبي هريرة وابن عباس وأبي سعيد الخدري وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وروايته هذه عنهم موجود بعضها في هذا المسند الصحيح ، وهي رواية تابعي عن صحابيّ .

شيوخه : أخذ أبو عبيدة العلم عمّن لقيه من الصحابة وعن الجابرين : جابر بن عبد الله وجابر بن زيد ، وعن صحار العبدي وجعفر بن السماك وغيرهم .

تلاميذه : وحمل العلم عن أبي عبيدة خلق كثير منهم : الربيع بن حبيب الفراهيدي صاحب هذا المسند ، ومنهم (حملة العلم الى المغرب) وهم أبو الخطاب المعافري وعبد الرحمن بن رستم وعاصم السدراني واسماعيل بن درار الغدامسي وأبو داود القبلي النفزاوي ، وكان الامام أبو الخطاب المعافري قد جاء من اليمن فرافق الأربعة من أهل المغرب فخرج معهم الى بلادهم فنصبوه عليهم بأمر شيخهم أبي عبيدة ، وبأمره نُصب الامام عبد الله بن يحي الكندي في أرض اليمن ، وجمعت إمارته اليمن والحجاز ، وأقام حملة العلم عنده خمس سنين فلما أرادوا الوداع سأله اسماعيل ابن درار عن ثلاث مائة مسألة من مسائل الأحكام فقال له أبو عبيدة : « أتريد أن تكون

قاضياً يا ابن درار ؟ » قال : « أرأيتَ إن ابتُليتُ بذلك ؟ » .

واليك ما يقوله الشارع المعتدل المنصف في مقدمة كتابه تحفة الأعيان[3] : « وندعو الى كتاب الله ومعرفة الحق وموالاة أهله ، فمن عرف منهم الحق وأقرّ به توليناه وحرَّمنا دمه ، ومن أنكر حق الله منهم واستحبّ العمى على الهدى وفارق المسلمين وعاندهم فارقناه وقاتلناه حتى يفيءَ الى أمر الله أو يهلك على ضلالته من غير ان ننزلهم منازل عبدة الأوثان ، فلا نستحلّ سباياهم ولا قتل ذراريهم ولا غنيمة أموالهم ولا قطع الميراث منهم (كغلاة الخوارج) ، ولا نرى الفتك بقومنا ولا قتلهم في السرّ ، وإن كانوا ضلالاً ، لأن الله لم يأمر به في كتابه ، ولم يفعله أحد من المسلمين ممن كان بمكة بأحد من المشركين ، فكيف نفعله نحن بأهل القبلة ، ونرى أن مناكحة قومنا وموارثتهم لا تحرم علينا ما داموا يستقبلون قبلتنا ، ولا نرى أن نقذف أحداً ممن يستقبل قبلتنا بما لم نعلم انه فعله خلافاً (للخوارج !) الذين يستحلون قذف من يعلمون انه بريء من الزنا من قومهم ، وهم بذلك مضلون » اهـ .

فالاباضية اليوم بعُمان والمغرب من بقايا الخوارج المعتدلين والمتمسكين بالكتاب والسنة ، وقال النور السالمي ايضاً : « ليس من رأينا بحمد الله الغلو في ديننا ولا الغشم في أمرنا ولا التعدي على من فارقنا .. الله ربنا ومحمد نبينا والقرآن إمامنا والسنة طريقتنا وبيت الله الحرام قبلتنا والاسلام ديننا ! » ولذلك

---

(3) مقدمة « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان » .

يحرم على المسلم اتهام أخيه المسلم في دينه بعد مثل هذا الاعتراف ، فيكون من المتألّين الذين يسارعون في تكفير المسلمين وهم الذين عناهم النبي ﷺ بقوله : « ويلٌ للمتألّين من أمتي » أي الذين يحكمون على الله بقولهم فلان في الجنة وفلان في النار .

واذا اطّلع المنصف على هذا الشرح وجد الشارح واسع الاطلاع وألفى شرحه واضحاً مبيناً وتعابيره صحيحة فصيحة ، اسلوبها المساواة فلا هي مسهبة مملة ولا مفرطة الايجاز مخلة ، وأما أبحاثه فيها فانها تدل على اعتدال في التحقيق وبعد عن التعصب ، فكثيرا مل ينقل عن العلماء المخالفين : كالحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة ، ويستشهد بأحاديث الشيخين وأئمة الحديث كأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارقطني والطبراني والبيهقي وغيرهم من أهل السنة والجماعة ، مما يدل على أن الأباضية في المشرق والمغرب مذهب قريب من مذاهب السنة ، والناظر في شرح النور السالمي عالم عمان يمتليء طمأنينةً بما ذكرته ، وقلما رأينا من رجال المذاهب غير السنية من يستشهد برجال الحديث والفقه من أهل السنة إلا استشهاد نقد وردّ ، وما آثرت تخريج أحاديث المسند والشرح ، ولا سيما ما رواه الشيخان إلا لتطمئن قلوب اخواني أبناء السنة بأن مسند الربيع الذي بني عليه المذهب الاباضي هو صحيح الأحاديث ، وأكثرها مما جاء في الصحيحين ، وجابر بن زيد ممن روى عنهم البخاري وغيره لكيلا يقع فيما وقع فيه خصوم الاباضية أو من لم يعرف حقيقة مذهبهم وعقيدتهم فيظنهم من الخوارج الغلاة كالأزارقة والنجدية والصُّفرية المانعين لموارثة

ومناكحة مخالفيهم .

ومن أعلم أهل السنة بالاباضية وأعظم من كتب عن الخوارج الامام المبرّد في كتابه الكامل فقد قال ما نصه : « قول ابن إباض أقرب الأقاويل الى السنة » ، وقال ابن حزم : « أسوأ الخوارج حالاً الغلاةُ وأقربهم إلى قول اهل الحق الأباضية » ، وابن إباض هو عبد الله بن إباض المري التميمي الذي عاصر معاوية وعدّه الشماخي في السير في التابعين ، وكان من اتباع الامام جابر بن زيد مؤسس المذهب الاباضي ولو نسب المذهب الى جابر بن زيد تلميذ ابن عباس لكان في رأيي أصح علماً وأصدق نسباً .

الثلاثيات : وقد ذكر أئمة الحديث أن رتب الصحيح تتفاوت الأوصاف المقتضية للتصحيح ، وأن من المرتبة العليا ما أطلق عليه بعض رجال الحديث أنه أصح الأسانيد الثلاثية كسند الزهري عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه ، وسند ابراهيم النخعي عن علقمة عن ابن مسعود ، وسند مالك عن نافع عن ابن عمر ، وهو قول البخاري ، لأن هذه الأسانيد قصيرة السند وقريبة الاتصال بالينبوع المحمدي ، واشتهر رجالها بقوة الحفظ والضبط وكمال الصدق والصيانة والأمانة ، وذهب الامام أبو منصور التميمي إلى أن أجلّ الرواة عن الامام مالك بن أنس هو الشافعي ، فأجلّ الرواة على ذلك ما رواه الامام أحمد بن حنبل عن الشافعي عن مالك ويسمى هذا السند : سلسلة الذهب .

ويشبه هذه السلاسل الذهبية سلسلة مسند الربيع بن حبيب وثلاثياته أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس ، ورجال هذه السلسلة الربيعية من أوثق الرجال وأحفظهم وأصدقهم لم يشب أحاديثها شائبة إنكار ولا إرسال ولا انقطاع وإعضال ، لأن الثلاثيات بأجمعها موصولة باتصال أسنادها ولم

يسقط من أسانيدها الثلاثية أحد ، و (المعضّل) هو ما سقط من إسناده اثنان فأكثر بشرط التوالي كقول مالك : قال رسول الله ﷺ وقول الشافعي : قال ابن عمر ، وقد يورد على قولنا هذا أن في مسند الربيع البلاغ والسماع مما يجعل الحديث مرسلاً ، ويجاب على هذا القول أن رجال هذا المسند إذا نقلوا عن غير مشافهة بينوا ذلك بقولهم : بلغني أو بلغنا ، أو سمعت عن فلان أو نحو ذلك مما يبعد بالمسند عن التدليس ، فهم رحمهم الله أجلُّ وأتقى من إن يوهموا الناس السماعَ وليسوا بسامعين ، وبذلك يظهر أن عظمة هذا السند مقطوع باتصالها ، لأن أبا عبيدة أخذ عن جابر وجابر أخذ عن الصحابة مباشرة ، حتى قيل : ان أبا عبيدة أدرك من أدركه جابر من الصحابة .

وأما جابر بن زيد الجوفي[1] الأزدي أبو الشعثاء (ـ 93 هـ) أصل المذهب الاباضي في عمان والمغرب[2] وصاحب عبد الله ابن عباس فقد كان أشهر من صحبه وقرأ عليه ، وذكر أبو طالب المكي في كتابه (قوت القلوب) أن ابن عباس قال : « اسألوا

---

(1) الجوفي نسبة الى ناحية بعُمان ، فان أصله من فرّق ، وهي من أعمال نزوى بالقرب منها ، وكان من اليحمّد ، رحل في طلب العلم وسكن البصرة فنسب اليها .

(2) وهو قريب من مذاهب أهل السنة لاعتماده في عقائده وعباداته ومعاملاته على الكتاب والسنة كما يراه في هذا الشرح المنصف الذي جمع شتات المسلمين وكلمة العرب ، وقد شرحت ذلك في ترجمة الأمام ابن دريد في مجلة (المجمع العلمي العربي) بدمشق في الجزء الأول من المجلد الثامن والثلاثين سنة 1382 هـ = 1963 م .

جابر بن زيد فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه » ، وقال إياس بن معاوية : « رأيت البصرة وما فيها مفتٍ غير جابر بن زيد ، وقال الحصين : « لما مات جابر بن زيد وبلغ موته أنس بن مالك قال : مات أعلمُ من على ظهر الأرض » ، ولما مات جابر بن زيد ودفن قال قتادة : « أدنوني من قبره » فأدنوه فقال : « اليوم مات عالم العرب ! » .

وعن ابن عباس قال : « عجباً لأهل العراق كيف يحتاجون الينا وعندهم جابر ابن زيد ! لو قصدوا نحوه لوسعهم علمه » .

شيوخه وتلاميذه الذين حمل عنهم العلم وحملوه عنه : أولهم وأخصهم به عبد الله ابن عباس فقد أكثر من الحمل عنه ، ومعاوية وعبد الله بن عمر ، وممن أخذ عنه قتادة وعمرو بن دينار وأيوب وخلق .

وإذا تأمل الانسان روايات هذا المسند وجده يروي عن كثير من الصحابة ، وإذا كان عدد من لقيهم من أهل بدر بلغ سبعين رجلاً فما ظنك بمن لقيهم جابر بن زيد من سائر الصحابة ، وأشهر أصحابه الرّاوين عنه أبو عبيدة ، ومنهم ضمام بن السائب وأبو نوح وحيّان الأعرج وكلهم من الفقهاء المجتهدين ، وناهيك قوله : أدركت سبعين رجلاً من أهل بدر فحويت ما بين أظهرهم إلا البحر ! (ابن عباس) .

شرح المسند : أمّا شارح هذا المسند فمن الحق أن نلمّ من ترجمته بما يصوّر حقيقته ويبيّن منزلته بين العلماء المحققين **فهو الشيخ نور الدين أبو محمد عبد الله ابن حميّد بن سلّوم بن عبيد بن خلفان بن حميس السالمي الضّبي (1286 ـ 1332) انتهت اليه رئاسة العلم بعُمان ، وظهر ذلك في تآليفه الجمّة في مختلف الفنون الشرعية والعربية مع التحقيق في مسائلها والاجادة في تأليف كتبها**

ورسائلها .

ومن مزايا هذه الثلاثيات أو السلاسل الذهبية سهولة حفظها ، وحافظ المسند الثلاثي الرجال إذا روى حديثاً من أحاديثه صدّره بسنده الثلاثي الذي لا يختلف في جميع أبوابه ، وحفظ الأحاديث الثلاثية أيسر على المستظهر من حفظ سلاسل طويلة كثيرة الحلقات والرجال ، ولأنه يسهل على حافظ الثلاثيات معرفة رجالها لقلتهم والتثبت من أوصافهم بالحفظ والصدق والأمانة أكثر مما يعرفه عن رجال سلسلة عديدة الحلقات قد يوجد بينهم من لا يطمئن القلب بصدقه وديانته مما يضعف الحديث ويجعله غير مقبول .

ولمزايا هذه الثلاثيات اهتم كثير من أئمة الحديث بتأليف الثلاثيات نذكر منها :

ثلاثيات الامام أحمد بن حنبل المطبوعة أخيراً بدمشق (1380) وشرحها في جزأين الامام محمد السفاريني ، وعدد ثلاثياته خمسة وستون ومائة حديث .

وثلاثيات البخاري وهي في صحيحه اثنان وعشرون حديثاً غالبها عن مكي ابن ابراهيم ممن حدَّث عن التابعين ، وهم في الطبقة الاولى من شيوخه مثل محمد ابن عبد الله الأنصاري وأبي عاصم النبيل وأبي نعيم وخلاّد بن يحي وعلي بن عباس .

وثلاثيات الدارمي وهي خمسة عشر حديثاً وقعت في مسنده بسنده .

- وثلاثيات الشيخ أبي اسحق ابراهيم بن محمد بن محمود الناجي وغيرهم .

ونضيف اليوم اليها :

ثلاثيات الربيع بن حبيب الأزدي ، وأحاديثها في مسنده من أصحها روايةً وأعلاها سنداً ، ورجال سلسلته الثلاثية

الحلقات هم : أبو عبيدة التميمي وجابر بن زيد الأزدي والبحر عبد الله بن عباس شيخ جابر وغيره من الصحابة ، وهم بأجمعهم مشهورون بالحفظ والضبط والأمانة والصيانة ، وهذا السند لا يختلف في جميع أبواب المسند كما يختلف في سائر كتب الثلاثيات .

ثم اقتفى الأئمة بعد ذلك أثرهم فقلَّ إمام من الحفّاظ إلا وصنف حديثه على المسانيد كالامام أحمد بن حنبل (164 ـ 241) واسحق بن راهويه (161 ـ 238) وعثمان بن شيبة وغيرهم من النبلاء ، ولما رأى البخاري هذه التصانيف ورواها وجدها جامعة للصحيح والحسن ، أو لكثير منها يشمله التضعيف فحرَّك همته لذلك ما سمعه من أستاذه اسحق بن راهويه حيث قال لمن عنده ، والبخاري فيهم : « لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله ﷺ ! » قال البخاري : « فوقع ذلك في قلبي ، فأخذت في جمع الجامع الصحيح » .

وقال السيوطي : وأما ابتداء تدوين الحديث فانه وقع على رأس المائة في خلافة عمر بن عبد العزيز .

ثم ذكر الحافظ ابن حجر في فتحه : أن أول من دوّن الحديث ابن شهاب (الزهري) بأمر عمر بن عبد العزيز كما رواه أبو نعيم من طريق محمد بن الحسن عن مالك ، ومرّ بنا الآن أن أول من جمع الآثار وبوَّب الأخبار هو الربيع بن صبيح وسعيد بن أبي عروبة ، ولم يذكر الربيع بن حبيب الفراهيدي الأزدي ولا مبران العدوي البصري ، والربيع بن حبيب صاحب هذا المسند من ثقات التابعين ، فقد أخذ كثيراً عن أبي عبيدة التميمي كما أدرك أبا الشَّعثاءِ جابر بن زيد والربيع شاب ، وجابر بن زيد من أشهر تلاميذ الحبر البحر عبد الله بن عباس ، ومع أننا لم نعثر على

تاريخ حياته فانا نقدّر أنه بدأ بجمع مسنده في صدر المائة الثانية ، وأنه أطلع شيخه أبا عبيدة على مسنده هذا المبارك .

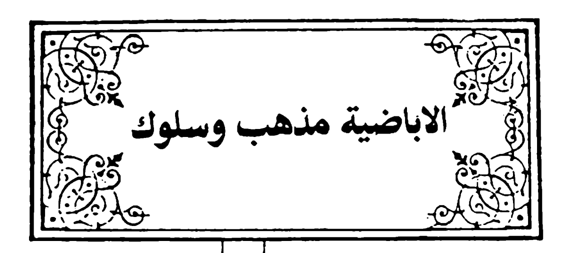
ومن يمن الطالع على الحديث أن يكون الزبيعان ، الربيع بن صبيح والربيع ابن حبيب في طليعة ركب الجامعين للحديث والمصنّفين فيه ، ومن الأسف أنا لا ندري شيئاً عن مصير مسند ابن صبيح ، وعسى أن يهتم بذلك الباحثون عن نفائس المخطوطات ، ومن لطف الباري أن أبقى لنا مسند الربيع بن حبيب ، ثم من نعمته عليّ أن وفقني لاعادة نشره مع شرح علاّمةُ عمان عبد الله بن حميد السالمي ، ولما يطلع على المسند وشرحه من علماء مصر والشام والعراق إلا قليل .

ويُفهم من شرح هذا المسند أن الشارح من المتمسكين بالحديث الصحيح وأرباب العقل الراجح والمعظمين للرسول ﷺ وأقواله والمهتدين بسنته وأفعاله ، فهو في شرحه لهذا المسند يمحّص أقوال العلماء ويختار على أقوال أهل المذهب ما صحّ من حديث الرسول ﷺ ، فليس هو ممن يرى (العمل على الفقه لا على الحديث) قال شارح « الصراط المستقيم » : « اذا وجد تابعُ المجتهد حديثاً صحيحاً مخالفاً لمذهبه هل له أن يعمل به ويترك مذهبه ؟ فيه اختلاف ، فعند المتقدمين له ذلك ، قالوا : لأن المتبوع والمقتديّ به هو النبي ﷺ ومن سواه فهو تابع له ، فبعد أن عُلِمَ وصحَّ قوله ﷺ فالمتابعة لغيره غير معقولة » . قلت : ولذلك لا يجوز التعصب للمذاهب تعصباً يُستهتر به بحديث الرسول ﷺ فان ذلك من الفسق والبعد من الدين والخروج على سيرة الصحابة والتابعين ، ومن هؤلاء المتعصبين الجامدين ـ كما يقول بعض الأئمة ـ من إذا مرَّ عليهم حديث يوافق قول من قلّدوه انبسطوا ، واذا مرَّ عليهم حديث يخالف قوله أو يوافق مذهب غيره ربما انقبضوا ولم يسمعوا قول الله تعالى : (فلا وربك

لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيتَ ويسلموا تسليماً) .

هذا ، وما كان أهل عمان أقرب فرق الخوارج الى أهل السنة إلا لأن مذهبهم كما أطّلعت عليه مبني على السنة وتقديم العمل على الحديث لا على الفقه والمذهب ، عملاً بما جرى عليه إمامهم جابر بن زيد الذي عمل بنصيحة شيخه عبد الله بن عمر الذي روى عنه ؛ فقد جاء في « الحجة البالغة » ان ابن عمر رضي الله عنه قال لجابر بن زيد : « إنك من فقهاء البصرة فلا تُفتِ إلا بقرآن ناطقٍ أو سنة ماضية ، فانك إن فعلتَ غير ذلك هلكتَ وأهلكتَ » . ولذلك نعتقد ونقول : إن المعقول ومن القلب المقبول أن لا نهتدي إلا بقوله تعالى : (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول) .

عز الدين التنوخي



في الحقيقة إن الإباضية قد قصدت منذ نشأتها إلى تحرير الأرادة الإسلامية والفكر الإسلامي من التمزع والتفرع ، والتفسخ والتشرخ في شؤون الدنيا وفي أمور الدين ، وفي الوقت نفسه تكون قد قادت المسلمين إلى الهدف الجماعي الواحد ودفعت بهم إلى الطريق الصحيح الرحب . . .

الاباضية مذهب وسلوك(1)

بقلم : الشيخ السيد عبد الحافظ عبد ربه

﴿ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير﴾ .

ان دراسة الاباضية في عمومها وخصوصها ترينا النماذج الرائعة الحية من القضايا الاسلامية ، والمفاهيم العقيدية ، والتشريع الالهي في شتى مجالات الكون ، وفوق خريطة العالم ، وعلى مستوى الانسانية كلها ، بما تنصلح به الدنيا ويستقيم معه الواقع ، وتتضح عنده العقيدة ، ويثرى فائضه رصيد البشرية ويتراءى حصاده زاهيا رابيا في أجواء العقيدة ، وآفاق الدنيا ، ويبدأ من لدنه مشوار التاريخ ، وتنطلق من محوره حركات الحياة في ايقاع متسق منظوم ، وتوازن شيق منغوم ، ضرورة ان الاباضية على الحقيقة رمز للسلوك الاسلامي المهذب الذي يصح ان يقاس عليه سلوك المسلمين ، ويحتذي به أي مسلم أو عربي عبر الأمة الاسلامية والعربية ، ومن خلال الالف والسبعمائة مليون ممن يقولون « لا اله إلا الله محمد رسول الله » وممن ينطقون العربية ويلهجون بلغة القرآن الكريم .

لقد امتد نسب الاباضية الى النبي ﷺ ، واستقى معينه من كبار

---

(1)الشيخ السيد عبد الحافظ عبد ربه (مصري) ت : 1990 من علماء الأزهر المرموقين .

الصحابة ، وبالذات من حبر هذه الأمة وعالمها عبد الله ابن عباس الذي حمله في صدره وبشر به في أقضيته وفي فتياه ، والذي أجمع عليه وتزاحم في تشريعاته وأصوله وفقهه ومنهجه علماء الاسلام واساطينه من أمثال جابر بن زيد ، وأبي عبيدة مسلم التميمي وعبد الله بن اباض ومرداس بن حدير ، والربيع بن حبيب الفراهيدي ومحبوب بن الرحيل ، وطالب الحق أبي يحيى عبد الله بن يحيى ، وأبي حمزة المختار بن عوف ، وبلج بن عقبة الازدي ، وضمام بن السائب العماني ، وغيرهم كثير وكثير من خيار هذه الأمة ، الذين قال الله تعالى فيهم وفي أمثالهم : **(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) ..**

وهكذا بدأت هوية هذا المذهب وملامحه ، وذاتيته وشخصيته تتكامل كائنا سويا في أعماق الدنيا ، وفي اغوار الحقيقة ، وفي وجدان الحياة منذ ان بدأ الاسلام أول خطواته فيها ، وآنئذ وضع قدمه هناك على الطريق القاصد ، وفوق هذه الأرض المباركة التي تنزل فيها وحي الله على رسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ان اصالة المذهب الاباضي وصدارته لم تأت من فراغ ولم تنشأ هكذا اعتباطا ، بل هيأ القدر الطريق أمام هذا المذهب ، وأطاب له المناخ ، وأمشى في مسيرته النجاحات المواتية ، وشده في تقنينه وفقهه الى المتاحات الواعدة المستقبلية ، واعده اعدادا كاملا معنيا مرعيا كي يتمكن من قطع الشوط ، واكال المشوار وتطويق آماده ، واقتحام احجامه وابعاده ، واداء رسالة اصلاحية ، استجنت واختبأت في ضميره ووجدانه ، وظل يحملها حقبا متطاولة من عمر الحياة ، حتى اذا شاء الله لها الظهور والولادة انفرجت عنها مشاعره واجتهاداته ، وجاءت الى العالم

في أسلوب من الوعي الجديد ، وصيغة واضحة وضاءة على يد عمالقة الفقه واساتذة التشريع وعلماء الاصلاح من رجال الاباضية الشوامخ الذين نذروا نفوسهم لله وباعوها ـ في سبيل ترشيد الانسانية ـ بيع السماح . أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

فهل يمكنني حينئذ أن أقول : ان المذهب الاباضي أيقظ حراس الاسلام والعروبة عبر آلاف السنين ، وعلى مدى الدهور والعصور بما فعله ـ وما سيفعله ـ نهوضا بالاسلام ومن أجل قضايا المسلمين ؟ .

في الحقيقة إن الاباضية قد قصدت منذ نشأتها الى تحرير الارادة الاسلامية والفكر الاسلامي من التمزع والتفرع ، والتفسخ والتشرخ في شئون الدنيا وفي أمور الدين ، وفي الوقت نفسه تكون قد قادت المسلمين الى الهدف الجماعي الواحد ودفعت بهم الى الطريق الصحيح اللاحب ، ومشت معهم في زحف مقدس ، وصف منتظم راكض الى حيث تكون الوحدة الاسلامية ، والفرقة الواحدة الناجية التي عناها الله في قوله لرسوله ﷺ : (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) والتي ارتضاها النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وأخبر عنها حين قال : « افترقت المجوس على سبعين فرقة ، وافترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، كلهم في النار الا واحدة » ..

ان الاسلام قد مني ـ منذ سنواته الأولى ، وخطواته الطرية ، أو بدءا من تعامله مع الحياة ، في عهد الخليفة الثالث ـ بالكثير جدا من الاضطرابات والفتن والكبير الخطير من البلايا والمحن حين تفرق المسلمون مزعا وشيعا ، وتنافروا اقساما وارقاما ، وكادت شأفتهم ان تنقض ،

وعصـاهم أن تنكسر وأمرهم أن ينتهي وينفض .. وزاد الطين بلـة والقلب أوجاعا وعلـة ، هـذا الهجوم الزاحف والطوفـان الخـاطف الراجف ، والموج الهائل المتلاطم ، الذي جاء في معية هـذا الفكر الغريب الوافـد على البيئـة الاسلامية والمتمثل في الفلسفة اليونانية والوثنيـات الاغريقيـة ، والشطحـات المجوسية الفارسية ، والمتاهات الزرادشتية والترهـات المـانويـة ، والبوذيـة ، والبراهمية .

الى غير ذلك من الديانات الشرقيـة الوضعيـة ، والاباطيل والاضـاليل التي نفثهـا الشيطـان في ارواع أصحـاب هـذه الملل والنحل ، من احـلاسـه واتباعه وسدنتـه وأشياعه والمنفذين أمره والمنتهجين نهجه ، والسـائرين على حـداه وخطـاه .. هـذا الى جـانب مـا أثقل الأمر وقصم الظهر ، من الفرق الاسلاميـة العـديـدة ، والطـوابير الطـويلـة المـديـدة ، التي أضعفت كيـان العقيدة وأثقلت كاهل الدين ، بما ابتدع واتبع وبما احـدثوه بينهم وتنـازعوا عليه ، واختصموا فيه ، وتساقطوا عنده ضحايا وصرعى من مثل الاعتزال ، والمغالاة ، والجرأة واللامبالاة والتشيع والانحيـاز المتجسم المتضخم في المعتزلـة وغلاة الخوارج والصفاتية والحوشيـة والمشبهـة ، والقـدريـة والشيعـة مع مـا انشطرت اليــه هــذه الفرق والطـوابير من فروع وتشكيـلات ، ومــذاهب ومناحى واتجاهات وأيضا مع ما اندرج ضمن هـذه اللافتـات وانضوى تحت لـوائهـا من تسميـات واسماء ومسميـات بمـا تفـوق العـد وتتجـاوز الثـلاث والسبعين فرقة بكثير وكثير .. الأمر الذي يبهر العادين ويعجز الحاسبين .

ومن خلال كل هذه التراكمات والتنـاقضـات . والاعـداد والكميـات ومـا يـدور بينهـا ، ويحـدث في صفوفهـا ، من نزاعـات وخلافـات وصـدامـات وانقسـامات .. نرى تلك « الفرقة الناجية » وقد خرجت وحدها من وسـط هذه المعمعة ، وجحيم تلك المعركـة وهي تلوح بـاغصـان الزيتون ، وفروع

الورد ، أو قد هيأتها الأباضية وادخرتها لمثل هذا اليوم ، ولتقوم - قادرة ماهرة - بهذا الدور البطولي البارع الذي يحفظ على المسلمين وحدتهم ويبقى على كيانهم ، ويصون لهم العقيدة والدين ...

وبعد هذا كله هل يمكنني أن أواجه - أو أجابه - المتشككين والمتشائمين من دعاة التفرقة المذهبية ، وأحلاس الهوى المغرض والمتشنجين ، والمتعصبين ، وغلاة العقيدة والخارجين على الجماعة ، والمتسوقين في بضاعة الدين والمترهلين عند بعض الفتاوى ، والجامدين على بعض الآراء من سماسرة القيل والقال وعملاء التميع والتمزق وكهان التفرق والتفسق وأصحاب هذا الفكر الجامد المعاند ؟

هل يمكنني أن أواجه - أو أجابه - أو أقول لكل هؤلاء وأولئك ، تلك هي انظف بقاع الدنيا ، وأطهرها وقد اعتنقت ذلك المذهب الاباضي الذي بعد بها - وبالعالم الاسلامي كله - عن هذه المتاهات ، وتلك الشقشقات والشنشنات التي دوخت البشر واتعبت الناس ، وآدت كاهل الكون ، وأثقلت عاتق الايام وزلزلت أوزعزعت كيان الوجود ؟ .

تلك هي الجزائر وتونس وليبيا والمملكة المغربية وحضرموت وعمان ودول الخليج وزنجبار وشمال وشرق افريقيا .. وعموما بعض الجيوب المصرية وبعض أطراف السعودية وقد تمذهبت كلها بمذهب « أهل الاستقامة » واعتقدته منهجا وطريقا ، وتفاعلت معه سبيلا وسلوكا ..

تلك هي تطلعات الاباضية في الماضي والحاضر والمستقبل اصالة وعراقة ، واملا وعملا ، وبناء وطموحات ، ونهضة ويقظة وامانة ونية ، ووثبة وهمة ، وذودا عن العروبة ، ودفعا عن الاسلام وحماية لقضايا

الشعوب والامم ووقوفا صادقا صامدا وانعطافا منحازا قاصدا مع كل مضطهد مغلوب أو عان مكروب أو يائس بائس ، يطحنه الذل ، ويمضغه الظلم وتسحقه الحاجة ويرغمه الفقر ويقهره الهوان . ولا تفتأ التناقضات تلهب ظهره وتثقل اصره وتدق فوق رأسه بمطارق المعسكرات الدولية أو الانتماءات الحزبية أو التقوقعات الشعوبية أو الملاهي الشيطانية ، الصبيانية ، كما نرى ونشاهد ونسمع ونقرأ ، من كل ما يثير الغثيان ، ويغضب الانسان . يفر به ـ هاربا غاربا ـ الى الغابات أو ادغال المارستان .

ان العالم الاسلامي ـ وقد كانت تحكمه قوانين الاحتمالات وتشطره اختلافات الفقهاء ، وتمزقه المذاهب ، وتقطع أوصاله الاجتهادات فردية كانت أو جماعية ـ بدأ يسترد انفاسه اللاهثة ، وجهده المكدود ، وخطواته الراكضة اللاغبة ـ التي طالما امشاها على رؤوس الحراب ، وفي مفترق الطرق ـ في ظل هذه المؤسسة الوليدة الشرعية ، والتي انفرج عنها ، وتمخضها الفكر الاسلامي الصحيح المصفى ، الخالي من التعقيد والتعصب والمنبثق أصلا من المنبع الأساسي للعقيدة ، والمصدر المتفق عليه بين رجال القرآن والحديث ، ورواد الفقه والشريعة وأساتذة الدين والايمان والذي اعتمده الرسول صلوات الله وسلامه عليه بين أمته وجماعته مرجعا لهم وقانونا في قوله : « لقد تركت فيكم ، ما ان اتبعتموه لن تضلوا بعدي أبدا ، كتاب الله وسنتي » .

أقول : لقد توحد العالم الاسلامي ، واستراحت أمته ، في ظل ، وفي رحاب مؤسسة ، أهل الاستقامة ، أو « الفرقة الناجية » أو « الجماعة » التي نعتها الله تعالى بالخيرية في قوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت

للناس) ، واعنى بها « الاباضية » مذهبا وسلوكا ، وسنة وطريقا ، وتعاملا وتداولا » .

وان المتتبع لسلوك هذه الطائفة ، وتناولها للدين وتعاملها معه ، ليدرك من أول وهلة ، ويعتقد يقينا انها الفرقة « الواحدة » - بين الفرق الثلاث والسبعين - التي ضمت جوانحها على الدين واستقبلته في صدرها ، ومارسته وتعاملت معه كاسلوب صحيح ، وصيغة وضيئة مضيئة ، ومن هنا لا عجب ان تمذهبت بها الحياة وأصدرت وأوردت كل شئونها الدينية والدنيوية من ثنايا ، - ومن خلال - ما نشير به وتدل عليه وتقف عنده ، وترشد اليه ، وتثق فيه .

هذا وان للمذهب فقهاءه وعلماءه الاجلاء الفضلاء ، الذين توافروا على استنباط احكامه . وتوضيح مسائله من الكتاب والسنة واجماع السلف الصالح ، والذين ربطوا - عن منهجه وبرنامجه - شئون الدنيا بشئون الدين وأطالوا يد الاسلام - بيضاء غراء - حتى التفت حول الأمة ، وأصابت كل شيء فيها بالتهذيب والتشذيب ، واحتضنتها ، وأحسنت اليها ، كما دفعت عنها - وطاردت - كل دخيل أو غريب أو متلصص عليها ، أو متسلل الى جواهرها ومكنوناتها ، اما بقصد السرقة ، أو التلبيس أو التدليس فيها وغشها ، أو العمل على نسفها تماما ..

ولست في حاجة الى الاسترسال الطويل في بيان ما افادته الحياة عن طريق الفكر الاباضي ، ولا سيما في العمل على جمع كلمة المسلمين ، وتوحيد صفهم وانطلاقهم جميعا من مبدأ واحد ، والى غاية واحدة .

وها نحن اليوم نرى من آثار هذا التفكك المذهبي والطريقة التي نعبد الله عليها ، والطريق الذي نقطعه ونمشيه الى تعاليمه واداء واجباته ، ما يندى الجبين ويشيب الطفل ويذهل كل مرضعة عما ارضعت ، ويسكر

الناس ، ويدعو الى الأسى والأسف والفجيعة والمرارة ، فيما أصاب الـدين . وفيما أصـاب المتـدينين من جراء مـا غرقـوا فيــه الى الاذقــان ، من هــذه التشكيلات المذهبية والموديلات و « الشللية » .

لا شك ان هذا كله يمزق كيان الدين ، ويفتت وحدته ، ويقضي عليه ويمزق بـالتـالي كيـان المسلمين المتـدينين ويفتت قوتهم وتمـاسكهم ، ويقضي عليهم جميعا قضاءه المبرم ، ويفنيهم الفناء الذي لا قيامة بعده أبدا .

وهـذا حتما من فعـل الابـالسـة الخبثـاء ، أو الـسـذج البسطـاء أو أعـداء العقيدة والدين .

ولن يسترجع المسلمون مجدهم الغـابر ، وأمسهم الـدابر وقوتهم الذاهبة ، وشمسهم الغاربة ، الا بالاعتصام بحبل الله جميعـا ، وأن لا يتفرقوا ، وأن يتحدوا فيما بينهم ، وان يتجمعوا في كنف الـه واحد ويجتمعوا على عبادته ، وان لا يقلبوا وجوههم حائرين في الأرض أو في السماء ، وأن يلبسـوا الياقات المنشاة القابضة التي لا تسمح لهم بالالتفات يمنة ولا يسرة وان يتركوا عبـادة الاشخـاص والهرولة الى « الايديولوجيات » التي صنعها أشرار الناس .

حينئذ ـ وحينئـذ فقـط ـ يمكن للمسيرة الاسلاميـة أن تنطلق في ركب قـوي ـ قـوامـه أكثر من ألف وسبعمائـة مليـون مسلم وعربي ـ الى غـايـاتهـا الضاربة في أعماق الحياة والـذاهبـة . تطلعـاتهـا الى مـأتيـات السماء ـ **(قـد نرى تقلب وجهـك في السماء فلنـولينـك قبلـة ترضـاهـا ، فـول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) .**

أقول : كان من اثر ذلك ـ أو كرد الفعل ، أو رجع الصدى لكل تلـك الشيطانيات ، « والنجاتف ، لكل هـذه الكرنفـالات » ـ ان انعكست هـذه الرؤية الكابيـة المعتمـة نـاطقـة معبرة عن التمزق الشـامل الخـانق ، والخراب

الداهم الحانق ، الذي أحاط بالأمة وأصابها في شتى مرافقها واجهزتها ومؤسساتها وفي حياتها السياسية بالذات ، ولا سيا ، وعلى الأخص المنطقة العربية ـ من الخليج الى المحيط ـ التي يعايشها ويواطنها أكثر من مائتي مليون عربي ، الأمر الذي أطمع فيهم الأعداء وأغرى بهم السفهاء وجرهم دائما الى الوراء والخلف وساقهم جميعا ـ وأبدا ـ الى الهلاك والحتف .. وشد الأمة الى ما الله به عليم .. فكثرت فيها الطوائف والنحل وتهاوت في مستنقعاتها « المجموعات » و« الشلل » وتناوح بين أطلالها الخراب ، وتنازعتها « الهيآت » و« الاحزاب » .

وهل يعقل يا قوم أن يتقاتل الاخوان ، أو يتقابل الشقيقان في معركة أو يختلف أهل البيت الواحد فيا بينهم أو أن ينشغلوا جميعا عن أمرهم ، حتى يتسلل اليهم العدو ويمزق كيانهم ، ويقضي فيهم قضاءه ، ويعمل جاهدا على محو معتقدهم وشطب دينهم ، ومسحهم كلهم من فوق خريطة الوجود ، وجغرافية الحياة ، كما نرى اليوم ونعايش هذه الأحداث المروعة ، في افغانستان وباكستان ، واندونيسيا وماليزيا ، وبلغاريا ، والهند وفي أطراف افريقيا وفي بعض الجيوب الاسيوية ، وخاصة في فلسطين ولبنان ، وفي الجبل وفي الجولان ؟ .. معارك في المغرب وفي الصحراء الغربية معارك في ليبيا وفي تشاد وفي جنوب السودان .. تحرشات ضارية بين سوريا والعراق .. والعراق وايران .. والاكراد والاتراك .. وكلهم مسلمون واخجلاه !!

ولا شك ان من وراء هذا كله الاستعمار الكافر اللئيم ، من وراء هذا الصهيونية والشيوعية والصليبية والرأسمالية وكل من ينتمي الى هذا الطابور الغادر .. وواويلتاه وواسلاماه وواعروبتاه من كل هذا الذي أصاب المسلمين والعرب ، ومن كل

خطر راصد متربص ، مرتقب ، يجريه العدو المستعمر هنا وهناك في كل اصقاع الأمة ، وفي كل بقاع العروبة وديار الاسلام ..

واويلتاه لهذه الأمة التي فجرت الأحداث جراحها ، ومزقت الاختلافات أوصالها ، وتآمر عليها بعض ابنائها من محترفي السياسة وعشاق الزعامة ومدمني اللعبات الصبيانية والمكائد الشيطانية ومن كل من يساوم على عرضه ، وأرضه ووطنه بالجاه أو المنصب أو المال !!

ان العدو قد وضع في خطته ، ورصد في مفكرته ، ورسم في استراتيجيته وسجل في موسوعته ـ منذ أن بدأ المشوار مع العرب والمسلمين ـ كل هذه النتوءات ، والكأداءات في طريق المسيرة العربية المسلمة حتى تتعطل المسيرة ويتخلف العرب والمسلمون .. ودائما لا سلاح امضى واعمل في مثل هذه المعركة ـ يستعمله العدو ويبارز به ـ الا سلاح الشحناء والبغضاء والتدابر والتناكر ، الذي هب على الصف العربي والاسلامي بفعل هذا العدو ـ والذي عصفت به أعاصيره ، فشرخ جدرانه وحطم أركانه ، ومزق بنيانه وأتى على قواعده من الأساس وحتى أصبحت الأمة العربية وبعض الدول الاسلامية أشبه بالاطلال والخرائب . التي يعيش فيها البوم . وتعايشها الوطاويط والخفافيش . والغربان والذؤبان وكل ما له ظفر وناب أو مخلب . أو « فك مفترس » .

وما البوم . والوطاويط والخفافيش . والغربان والذؤبان ومن له الظفر ، والناب والمخلب والفك المفترس الا هؤلاء الذين يتقاسمون هذه الأمة ، وهم مع الأسف من أبنائها ويتنازعونها فيا بينهم .. وكان الاجدر بهم جميعا أن يدافعوا عنها كا يحرص كل من هذه الوحوش المتناوشة

المتهارشة والكواسر الضوارى ، على أن يهبر من هذه الأمة هبرة ، أو ينتزع منها بضعة أو يأخذ قطعة أو مضغة أو لقمة ، يسد بها جوفه النهم ويملأ بها كرشه الشره ، ويحشى بها بطنه الضخم المترهل الذي يقول دائما بقولة جهنم ، (هل من مزيد) ؟ ..

يا أيها المسلمون ، ويا أيها العرب ماذا بقى لكم بعد ذلك ؟

يا أيها المسلمون .. لقد خدعكم العدو عن أنفسكم وعن ماضيكم وعن تاريخكم وعن اسلامكم . وعن عروبتكم ..

انساكم انكم اتباع محمد ، واشياع أبي بكر وعمر ، وتلامذة عبد الله بن عباس ، وجابر بن زيد ، وعبد الله بن اباض واجناد خالد بن الوليد ، وابناء هؤلاء الاصحاب : معاذ بن أنس وعمار بن ياسر ، واسيد بن خضير ، وانس بن قتادة وأوس بن ثابت ، واياس بن زيد ، والحباب بن المنذر ، وحوشب بن طحية وخارجة بن أبي زهير ، وخراش بن الصمة ، ورافع بن مالك ورفاعة بن رافع ، وزيد بن أرقم ، وزيد بن حارثة والطفيل بن مالك ، ومحمد بن سلمة ، ومعاذ بن جبل ، ومعن بن عدى ونوفل بن الحارث ، والنعمان بن بشير وعبد الله بن غرفطة وقبيصة بن ذؤيب ، وسعد بن عبادة ، وسفيان بن بشر ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وغير هؤلاء من الأفاضل الاخيار ، والصحابة الابرار الذين لفتوا وجه الدهر وغيروا مجرى المسيرة ، وفجروا ينابيع الخير في ربوع هذه الحياة .

يا أيها المسلمون في كل مكان .. أفيقوا من نومتكم واستيقظوا من سباتكم الذي تغطون فيه غطيط أهل الكهف وتنبهوا الى هذا العدو الشرس اللئيم الذي يزرع بين صفوفكم كل بذور الفرقة ، وكل أنواع العداوة ، وكل أصناف التحاسد والتحاقد ، ثم أخيرا يغرى بعضكم ببعض ، ويشعلها - بأيديكم أنتم - حربا ضروسا ، وغارات شعواء لا تبقى ولا تذر ..

والا .. فخبروني بربكم : ما هذه المعارك الدائرة الجائرة بين العراق وايران ؟

ما هذه المعارك والمحارب التي تتراقص عاصفة بين المسلمين بعضهم ضد بعض ؟

من الذي أشعل فتيلها ، وأوقد نارها ، وانتزع منها ذراع الامان لتنطلق على الأمة الاسلامية جبارة غدارة هكذا ؟ .

ان اعداء الاسلام والمسلمين هم من وراء كل ذلك .. وفي مقدمتهم الشيوعية والصهيونية ومن لف لفهما ، ودار في أفلاكهما .

ان الشيوعية والصهيونية هما المعسكران اللذان فتنا المسلمين والعرب ، واغريا بعضها ببعض ، وحرضا ، أو سلطا البعض على البعض لجملة أسباب .. ومن أهمها :

1) الحقد على الاسلام والمسلمين ، والعرب والعروبة فالشيوعية لا دينية والصهيونية كافرة .

2) اقامة سوق للسلاح ، يتاجر فيه كل من المعسكرين على حساب الأمة الاسلامية ، والأمة العربية ، فالشيوعية والصهيونية تكسبان المليارات والمسلمون والعرب يخسرون ملايين الأرواح وملايين المليارات من الأموال .

3) التخطيط السافر ـ أو الملثم المقنع ـ للاستيلاء على مصادر النفط في حقول الاسلام والعروبة ، وصرفِ ـ أو طرد ـ المسلمين والعرب عنها ، سواء كانوا ايرانيين أو عراقيين أو خليجيين أو عربا على العموم أو مسلمين عامة .

هل كان يمكن للشيوعية أن تضرب الافغان وتقتحم عليهم بيوتهم لولا العزلة والفرقة والغربة التي يعيشها المسلمون ؟ .

هل كان يمكن للشيوعية أن تقيم القواعد والترسانات في الوطن

الاسلامي لتتجمع فيها . وتضرب منها الاسلام . لولا تخادل المسلمين وتفرقهم ؟

لعلكم أيها المسلمون قد أصابكم الترهل والاسترخاء حتى طمع فيكم العدو ، وكرهكم الصديق . على الرغم من كثرتكم وألف وخمسائة مليونكم اضافة الى مائتي مليون عربي حتى صدقت فيكم نبوءة الرسول ﷺ في قوله :

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على القصاع قالوا : أو من قلة فينا يا رسول الله ؟ قال : لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله مهابتكم من قلوب أعدائكم ، من حبكم الدنيا وكراهية الموت والجهاد » .

وأنتم أيها العرب في كل مكان :

يا أبناء عمان ويعرب ، يا أبناء ربيعة ومضر ، يا أبناء الغوث بن مالك بن يزيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام .

يا أبناء الازدزينة الدنيا ، وفخر الزمان ، يا أبناء العباقرة العباهلة ، والاقيال الصيد ، والغر البهاليل والابطال الميامين نظرة متأنية الى تاريخ أسلافكم واجدادكم ورجعة الى الماضي لاستيعاب مفاخركم وامجادكم ، ووقفة مع العمالقة الشوامخ من آبائكم وأجدادكم الذين نشروا مكارم العرب ، ورفعوا فضائل العروبة عالية خفاقة فوق كل الاعلام . وعلى مر الدهور والاعوام .

أيها العرب ، ماذا عساه يقول عنكم الآباء والاجداد ؟ ما عساهم يقولون عنكم اليوم ، وبأي لغة يقولون ، وما عساكم تعتذرون اليهم عن تفرقكم وتمزقكم وضياعكم هكذا أوزاعا واتباعا واصفارا واصفارا ؟

وهكذا تعاون الذهول العربي ، مع التربص اليهودي والصليبي

مع ضغائن الدول الكبرى من مثل امريكا وروسيا ، أو الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

من أجل هذا كله ـ وحفاظا على العروبة والاسلام ـ حملت الاباضية فوق كتفها قضية القوم جميعا ، مسلمين وعربا وحملتهم على الالتزام بالمحبة واحترام أبعاد الجادة ، وحمتهم من التردي والهاوية واجتازت بهم هذا الطريق المحوري الصعب والمنعطف التاريخي الهادر ، الذي يشد الى دواماته ويبتلع في لهاته ومتاهاته من لم يلتزم بقواعد المرور ، ومن لم يخش عاقبة الأمور .. وذلك بمخالفة الدين واتباع الشياطين .

ومن هنا فإن الأمم التي احتضنت الاباضية لم تزل وستظل تلح على انجاز ما خطته وانفاذ ما رسمته . واكمال ما بدأته وخططت له ، وذلك عن طريق العقيدة والسلوك المنهجي المتوائم مع المذهب الصحيح الذي تتراءى بين أبعاده وتتضح في نطاقه وآماده صور الحياة الاسلامية الكريمة التي أدرك بها السابقون الشوط والشأو ، وحقق بها اللاحقون ، الرجاء المنشود والأمل الحلو ، واعنى بهذا المذهب « مذهب الاباضية » الذين تناولوا به الدين في سهولة ويسر ، وتعاملوا معه بطول نفس ، ورحابة صدر ، وتعاطوه برنامج عمل يقطعون به مفازات الحياة وصحراءها ، في حراسة الدين ورعاية العقيدة وعناية ساهرة يقظى من تعاليم الاسلام فلم يتشددوا ولم يتعصبوا ولم يغالوا ولم يغرقوا ، وكذلك لم يفرطوا في معتقدهم أو يتناولوه بضعف أو يتعاطوه بميوعة واسفاف وانما كانوا بين ذلك قواما .

فلقد استنبطوا مذهبهم من القرآن الكريم ، واقتبسوه من السنة المطهرة ، وسلكوا في مسيرتهم الى عبادة الله نفس الطريق

التي سلكها الصحابة وارتضاها الاجماع ، وحرصوا كل الحرص على أن تكون خطواتهم على ذات الدرب ، وفي نفس الطريق وفوق (إفْرِيز) الشارع ومع السبيل التي قطعها الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، في مشواره الطويل وشوطه البعيد ، جيئة وذهوبا ، على مدى مسيرته المباركة ورسالته الميمونة عبر الثلاثة والعشرين عاما ، ومع تحريهم الصدق وانتهاج الحق ، ومجاهدة النفس ، وريادة المعاناة والرياضة والترويض على المشقة والمقاساة ، حتى استبان لهم الأمر ، ووضح أمامهم الطريق . وتبين للعالم أجمع - أو المخلصين المنصفين - أن هؤلاء هم « أهل الاستقامة » أو هم في الواقع - وعلى الحقيقة - « الفرقة الناجية » التي أخبر عنها الصادق المعصوم والتي أمر الله رسوله أن يختارها وينتهجها سبيلا يوصل الى عبادته ومرضاته في قوله تعالى (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

والمذهب الاباضي ، ليس عجيبا في الدنيا ، ولا غريبا عن الحياة وانما هو العملة الصحيحة التي يجب تداولها وتناولها والتعامل بها في شتى الأنحاء ، وفي جميع المناخات والاجواء وهي بعون الله عملة لا ينالها التزييف أو التلبيس ولا يطولها الوضع أو التدليس ، ولا يجوز في منطقها العمل بين بين ولا التنكر في وجهين ولا المشي على الحبلين ، فالحق عندها واحد لا يتجزأ وكل لا يتوزع .

وحينما أشبل المسلمون الامناء والاتقياء الاوفياء - بعطفهم السابغ ورعايتهم اليقظى - على تعاليم هذا المذهب وأوصوا باستمراريته وحمايته ، كان من شأنهم في هذا كله ، أن يحيطوا هذه المؤسسة الشرعية بكل أسباب

الرعاية والعناية وأن يحرسوها بكافة الضمانات والوقـايـات ، حتى تعشوشب افرعهـا وتطـول اذرعهـا وتمرع اغصـانهـا وتشتـد سـوقهـا ، ويتكاثف ظلهـا وتنضج خيراتها وثمارها فيستظل بها الحران ، ويأكل منها الجوعـان ويشرب من زلالهـا وسلسبيلهـا كل عـاطش اسـوان ويخلـد الى تعـاليمهـا وآدابهـا ، ومذهبيتها ، واستاذيتها كل تائه أو ضال أو حيران في بيداء هذه الحياة وفي صحرائها الشاسعة الواسعة ..

ان الاسلام في تشريعاته ، انما جـاء لتنظيم حيـاة البشر حتى يستحقوا أن يكونوا خلفاء الله في الأرض ، فنظم العلاقة بين الخالق والمخلوق . وبين المخلوقات بعضها مع بعض ونظمها علاقة أكيـدة بين الانسـان وربـه ، وبين الانسـان ونفسه وراعى جانب المادة كما راعى جانب الروح وأسهم بـاسهـاب في تنظيم حيـاة النـاس في العبـادات من صـلاة وزكاة وصـوم وحـج ونظم حياتهم كذلك في المعـاملات من بيع وشراء ، وسلم وقرض وشفعـة ومزارعـة واجـارة وهبـة ووصيـة ونـذر ووقف ، وتوريث وحـدود وزواج وطلاق ، وعتق وتدبير ، وقصاص وديـة ، كما أشرف على بواعث ودواعى العمل لـدى الانسـان في سلوكـه واخلاقـه وقوى فيـه جوانب الخير وزجر عنـده غيـلان الشر ، وجعل المسلم أخا المسلم لا يخذله ولا يظلمه ولا يسلمه . وحضـه على أن يحب لأخيه ما يحبـه لنفسـه ، وأكـد على حتميـة ازالـة أسبـاب العـداوة والبغضاء ، والشحناء بين أبناء الأمة الاسلامية ، ودعـــا المسلمين جميعـا الى كفالة الفرد ، وان الفرد في ذمة الجميـــع وانه لبنة في كيان الأمة وان الأمـة هي الفرد الدائر المتكرر .

كل ذلك من أسـاسيـات الابـاضيـة ضرورة انهـا هي الـدين الصحيح في اعلا أطواره . وأبهى مراحله وأدواره ، وانها قامت في الحقيقة على تبني تلك الفضائل العبادية والمعـامليـة والسلوكيـة عمومـا والعمل على ترجمتهـا سـلوكا

وعملا وتطبيقا وفعلا .

الاباضية تدعو الى التمسك بكل ما جاء به الاسلام من مثل واخلاق ، وقيم ومبادىء واخلاقيات ومناهج ، تدعو الى الاسلوب الامثل ، والحوار الافضل ، والملاينة في الجدل والنقاش للوصول الى الحق والصواب ، تدعو الى طاعة الحاكم وعدم الخروج عليه بأي حال من الاحوال إلا إذا عصى الله بالفعل أو بالاقرار فيجب نصحه وتوجيهه فقط لا غير .. خوف الفتنة والاضطرابات .

والاباضية دائما تهيء المسلم بأن يكون مع الله في معاملاته وعباداته ، في الجامع وفي الشارع ، في الحقل والمصنع ، في المتجر والمعمل ، في المعهد والمدرسة والجامعة - وحده أو مع الناس - في كل حركاته وسكناته ... تدعو الى مجتمع نظيف شريف ، نزيه عفيف يكره الفوضى والديماجوجية ، تسوده المحبة ويظلله التراحم ، يمقت الغش ، ويثور على الرشوة ، ويجرم المحتكر ويحاكم المتجر المتحكم في أقوات الناس وفي ضرورياتهم . الاباضية هي كل هذا وأكثر من هذا .. هي الفيصل والحكم الذي يبدى الرأي واضحا في معارك المسلمين ومشاكلهم ، هي الترجمة الأمينة الصادقة لسلوك النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وأصحابه الأئمة الهداة المهديين .. هي عودة بالمسلمين من جديد الى عهد النبوة الأول في صدر الاسلام ونضارته .. هي اذابة الفرد المسلم في ألف وسبعمائة مليون مسلم ، وهي بالتالي اذابة هذه الملايين الحاشدة الهائلة في الفرد الواحد المسلم ، بحضانته ورعايته وكفايته وكفالته .

هي الحقيقة سافرة ، والعقيدة ناهية آمرة ، لا تجامل على حساب

الدين ، ولا تداهن أو تمـالىء ، بل تجاهر بالحق صـادعـا وبـالشرع وفقهـه نـاصحـا وازعـا ، وتخـاطب النـاس جميعـا على حـد سواء لا فرق بين حـاكم ومحكوم ، وتـابع ومتبـوع ، وسيـد ومسـود لا فضـل لعربي على اعجمي الا بـالتقوى ، والعمل الصـالح ، ومن هنـا عـاداهـا أراذل القـوم والسفهـاء من الناس تمـامـا كما عـادى الكفـار أصحـاب الرسـالات والنبوات في كل زمـان ومكان .. ذلـك لانهـا كشفت عن سـؤاتهم وسيئـاتهم وفضحت عـورتهم وسحبت البسـاط من تحت أقـدامهم لا سيا الحكام والقـائمين على الأمـور ، حين أرتهم للرائين المشـاهـدين حكامـا من « كرتـون » وقـائمين على الابتزاز والاكتناز وخطف اللقيمات من أفواه المحكومين ، ولقد عانت الاباضيـة من كل هؤلاء مـا عـانت عبر مسيرتهـا الأميـدة البعيـدة . وعلى مـدى الأشـواط الطويلة الضاربة في أعمـاق السنين وفي أغوار المـاضي والتـاريخ حتى يومنـا هذا !!

عادوها لأنها تجهر بكلمة الحق وتنطق بالصواب ولا تحب الجهر بـالسوء من القول ..

عـادوهـا لانهـا تريـد أن تطبـق شرع الله وتحقـق المفـاهيم الاسـلاميـة الصحيحة .

عادوها لانهـا تعـالج كل الأمور بموضوعيـة صـادقـة بعيـدا عن التهريج والهوى والاسفاف ..

عادوها لأنهـا تعمل جاهـدة على تـأكيـد العـدل والتبشير بـه بقـدر مـا تحـارب الظلم والظـالمين .. وسـامـح الله أصحـاب بعض المذاهب الأخرى الذين انضووا تحت الوية الحكام الباطشين فقالوا بمقولاتهم ، واتهموا الاباضية كما اتهمها هؤلاء وشنعوا على أتباعهـا وأنصـارهـا بـأنهم من الخوارج المغـالين والصقـوا بهم كل النقـائص

والمثالب ، تقربا الى اسيادهم وارباب نعمتهم الذين سلطوهم - جبارين ظالمين - على هؤلاء الاخيار الابرار وعلى مذهبهم الاباضي الذي أعاد للاذهان عهد النبوة والصحابة ، وأرانا صورا صادقة للاسلام في مرحلته الاولى على يد محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ايدى رجاله الملتفين حوله ، المناصرين له والذين قال الله فيه وفيهم : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود) .

لقد شرق هذا المذهب وغرب ، وشمأل وجنب ، وكان من السابقين الاوائل الذين نشروا الدعوة الاباضية وبشروا بها في الشمال الافريقي - في كل من الجزائر وتونس وليبيا والمملكة المغربية - الامام سلمة بن سعد الحضرمي الذي شوق بربر المغرب الى شد الرحال ، والتوجه الى المشرق لتلقى علوم المذهب من الامام ابي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، وتبعه كذلك كل من الائمة عاصم السدراتي ، واسماعيل بن درار الغدامسي ، وابي داود القبلي النفزاوي وعبد الرحمن بن رستم الذي أسس الخلافة الاباضية - فيما بعد - بتيهرت ، ومن قبل هؤلاء العمالقة حملة العلم ورواد المذهب ظهر في عهد مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية ، الحارث وعبد الجبار زعيما الاباضية في عهدهما واللذان حاربا عامل طرابلس الاموي واستوليا على المدينة بعد هزيمته . وفي سنة 140 هـ . وبعد استشهاد الامامين السابقين - بايع الاباضيون أبا الخطاب عبد الأعلى ابن السمح الذي حارب العباسيين وانتصر عليهم في بعض معاركه معهم ، وفي سنة 154 هـ بويع الامام أبو حاتم يعقوب بن حبيب والتف حوله أتباع المذهب الاباضي من جميع أنحاء شمال افريقيا وبالاخص أهل الجزائر وامتد سلطانه شرقا الى برقة ، وغربا

الى القيروان ، وجنوبا الى فزان وحارب العباسيين وهزمهم في معارك كثيرة ، الا انهم أحاطوا به أخيرا في جبال نفوسه وقتلوه مع ما تبقى من جيشه قريبا من ظاهر القلعة وككلة ، وذهب الى رضوان الله شهيد الحق والواجب !!

ان اباضية اليوم في المغرب العربي يسكنون جبل نفوسة وزوارة من طرابلس ، وجزيرة جربة من تونس ووادي ميزاب بالجزائر كما ان للاباضية كذلك ثقلا كبيرا في جمهورية مستقلة ببلاد القوقاز ، هذا الى جانب الأعداد الضخمة من اتباع المذهب بجزائر افريقيا الشرقية . وأيضا في جزر زنجبار وفي الخليج العربي وحضرموت ، هذا خلاف الملايين الاباضية في عمان ، اما في مصر وفي السعودية وفي العراق ، وفي بعض البلاد الاوربية فللاباضية فيها كذلك رحلات واقامات ووصايا وتعاليم وانصار واشياع .. أو ليست الاباضية هي مذهب الفطرة النقية البيضاء ، والجبلة الصافية البهاء ؟

(صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) .

واني لأعجب لعلماء المسلمين - ولا سيما علماء الازهر والزيتونة والقيروان ، والجامعة الاسلامية والجامعات والمعاهد المتخصصة في دراسات الاسلام ، من تجاهل هؤلاء جميعا هذا المذهب النقي التقي الذكي ؟ كيف طاوعتهم قلوبهم وعقولهم في أن يحجموا أو يتلكأوا عن الاسراع هرولة الى رحاب الاباضية ، والاستمتاع بما فيها من فقه وتشريع وأصول واستنباط ، وتبصرة حقيقية بالدين ، وتوعية مستوعبة لكل أفراد المسلمين ؟ كيف بهم لم يسهموا في نشر روائع هذا المذهب ولم يشاركوا في التبشير به ، والالتزام بمنهجه ومشربه ؟ انهم ان

استوعبوه وادركوا بركاته وخيراته ثم تقاعسوا عن نصرته ، يكونون مقصرين في أمر الدعوة ، وتسقط عنهم حصانة العلم وأهلية العلماء وان لم يستوعبوا المذهب بالمرة ، ولم يقدروا على الاحاطة به واستقطابه وتغشى عيونهم عن أبصاره والتطلع اليه ، يكونون قد خيبوا أمل الناس فيهم ولم يعودوا العلماء بل يصبحون الجهلاء وسيكون جهلهم حتما وحينئذ « جهلا مركبا » ويصدق فيهم ـ أو عليهم ـ قول القائل : «إن كنت لا تدري فتلك مصيبة ، أو كنت تدري فالمصيبة أعظم» .

ان الاباضية على الوجه الصحيح هي الرؤية الواضحة لصفاء الاسلام ونقائه ، وهي كذلك ابجدية الدين ، والمدخل الى العقيدة وبالتالي فهي العقل المطلق الكلي الذي يستشار في أصعب المشكلات دينية كانت أو دنيوية ، لأنه أقوى من المشكلات ، ولأنه يطوق المشكلات ثم يقتحمها ويفض اشتباكها ويحلها حلا سليما متكاملا ترضى عنه جميع الأطراف بقناعة وايمان ويقين .

ولقد كانت الامامة في المذهب ـ على مستوى العالم الاباضي كله من مشرقه الى مغربه ومن شماله الى جنوبه ـ تقوم مقام الخلافة في صدر الاسلام والعصور التالية في الاجراءات والمضمون وفي جمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم ، وتقوية جبهاتهم الداخلية والخارجية ، يصدرون عنها ، ويقيسون عليها ، ويعيشون في رحابها ، ويمارسون من خلالها شئون الدنيا والدين .. وكان الامام على الحقيقة هو الخليفة الراشد .. وما زالت هذه الخلافة أو الامامة تنتقل من عصر الى عصر بدءا من الامام جابر بن زيد حتى القت بمقاليدها اليوم طائعة مختارة ـ عن طريق العلماء الأفاضل

والـزعمـاء المصـلحين والأمراء النـابهين من أهـل الحـل والربـط ـ الى الامـام الجليل والعالم الفذ ، والعبقري النابغة ورجل المواقف والمكرمات غـالب بن علي بن هلال الهنائي ، الذي حورب واضطهـد ، وضيق عليـه ، وامتحن ، الا أنه صبر وصـابر ، ورابـط وثـابر في سبيل عقيـدتـه ، ومن أجل دعوتـه وامـامتـه ، شـد الله أزره وقوى ظهره ، وأظهر أمره (ليحق الحق ويبطـل الباطل ولو كره الكافرون) .

وأمـا أنتم أيهـا الابـاضيون ـ في كل زمـان ومكان في المغرب العربي وفي مشرقـه ، وفي افريقيـا ، وفي آسيـا ، وفي كل بلـد يـذكر فيـه اسم الله ، ويتهادى الآذان من فوق مآذنه ومنابره ـ أيها الاباضيون .. (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصـابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) .. (ولا تهنوا ولا تحـزنـوا وأنتم الاعلـون) . وسـلام الله عليكم يـوم ولـدتم وعشتم ، ويـوم تموتون ، ويوم تبعثون احياء شهـداء في جنـة عرضهـا الأرض والسماء ، وفي مقاعد الصدق والحق عند مليك مقتدر ..

السيد عبد الحافظ عبد ربه

من علماء الأزهر

رقم الإيداع

١١٥/٩٢م ج١

مطبعة الألوان الحديثة : ٥٦٢٢٧٦

إقرأ في هذا الكتاب للمشايخ والأساتذة رأيهم في الاباضية

- الشيخ إبراهيم ابو اسحاق أطفيش (الجزائر)
- الشيخ أحمد بن حمد الخليلي (عُمان)
- الدكتور ابراهيم عبد العزيز بدوي (مصر)
- الدكتور ابو القاسم سعد الله (الجزائر)
- الشيخ أحمد توفيق المدني (الجزائر)
- الشهيد الإمام سيد قطب (مصر)
- الدكتور شكري فيصل (سوريا)
- الشيخ عزالدين التنوخي (سوريا)
- الشيخ عبد الحافظ عبد ربه (مصر)
- الشيخ علي يحيى معمر (ليبيا)
- الدكتور عبد العزيز المجذوب (تونس)
- الدكتور عوض محمد خليفات (الاردن)
- الدكتور عمر الحاج صالح با (السنغال)
- الاستاذ مالك بن نبيء (الجزائر)
- الاستاذ فهمي هويدي (مصر)
- الدكتور محمد صالح ناصر (الجزائر)

الناشر

مكتبة الإستقامة